

الفصل الخامس  
الدين والعقل

obeikan.com

## هناك خطأ ما يتعلق بهذه الصورة

الأهمية العظيمة التي يعطيها القرآن للعقل فى اتصاله بالإيمان تثير الدهشة، وبخاصة عندما نضع فى الاعتبار المرحلة الزمنية، وكذلك المكان الذى ظهر فيهما القرآن أول مرة<sup>(١)</sup>. كانت الجزيرة العربية بجميع المقاييس بعيدة كل البعد عن كونها مهذاً للعلم أو للفلسفة. كان العرب أناساً قساء فقراء جهلة وغير متحضرين، مستغرقين معظم الوقت فى القتال الضارى ضد بعضهم البعض وضد خشونة البيئة المحيطة بهم للحصول على القليل اللازم للحفاظ على بقائهم. وفى حين أن الكتب المقدسة لديانات العالم الرئيسية الأخرى قد ظهرت داخل مجتمعات متقدمة وراقية، فقد ظهر القرآن أولاً فيما يمكن أن يناسب وصفه فى الصحراء الثقافية القاحلة. يتفق المؤرخون على أن العرب كانوا قوماً بدائيين ليس لديهم ميراث فنى أو أدبى أو علمى يمكن الحديث عنه، ولا يملكون مدارس للفلسفة، ولا أعمالاً ذات أهمية من الفن المرئى، وكانوا جاهلين بعلوم الرياضة العليا، وليسوا من أصحاب

(١) إصرار القرآن على أن العقل ضرورى وجوهري للدين هى فكرة راديكالية حتى فى العصر الحديث. لقد أصبحت فكرة تناقض العقل مع الإيمان بديهية من بديهيات الفكر المعاصر. ولم يثبت فقط هذا التناقض، بمعنى أن القياس قد أظهر أن الإيمان بالله يقود على الدوام إلى تناقض منطقى، بل علاوة على ذلك فإن هذا التناقض على الأرجح هو مفهوم إدراكى تولد من الخبرة التاريخية وكذلك الشخصية. فلدينا من جهة التاريخ الطويل من اضطهاد الفلاسفة والعلماء من قبل المؤسسة الدينية، ومن جهة أخرى فلدينا الإحباط العام الذى ينتاب العقلانيين غير القادرين على الحصول على إجابات مريحة على تساؤلاتهم الدينية. لذلك فقد يكون من الأكثر صواباً أن نقرر أن العقل والإيمان قد استخدمتا على الدوام ضد بعضهما البعض بدلاً من كونهما متضادين بالضرورة. وبغض النظر عن كيفية توصيف ما سبق، فهناك القليل النادر داخل التراث التوحيدى اليوم الذى يصير على اتحاد الإيمان مع العقل. كما يتوجب أيضاً الإشارة إلى أن معظم المسلمين فى أيامنا هذه، وبخاصة كثير من الشيوخ منهم، على حذر من أى اقتراب عقلانى ناحية الإسلام. ويبدو أنهم يعتمدون بشدة أكثر على النقل وليس العقل. لم يكن ذلك هو الحال دائماً داخل العالم الإسلامى، وبخاصة فى قرونه الأولى من التاريخ الإسلامى.

الكتب أو النصوص المقدسة الأخرى . كان الشعر هو الشكل الفنى المنظور الوحيد لديهم ، وكان يتداول ويتوارث شفهيًا . لا يتوقع من مثل هذه البيئة أن تنتج عملاً بمثل هذه العبقرية والقوة الأدبية . وقد يفترض أن نضجًا ثقافيًا طويلاً وتدرجيًا قد سبق ظهور القرآن .

لا وجود لدليل على أن محمداً قد تلقى تعليمًا رسميًا ، وربما يكون قد قاد بعض القوافل التجارية عندما كان فى منتصف العشرينيات من عمره ، لكن ذلك لم يتح له فرصة تنمية مهاراته الفكرية لبلوغ هذا المستوى الرفيع . إن مجمل أسلوب القرآن ، وتأكيده على العقل ، وترابطة المنطقى ، واستخدامه العبقرى للغموض والرمزية ، وجماله وإيجازه ، يشير إلى صاحب نص له بصيرة وحكمة تتجاوز وتتعالى بكثير على البدائية الضيقة لشبه جزيرة العرب المتخلفة والمعزولة .

ولقد ظننت أنه ربما كان للقرآن أكثر من مصدر ، لكن على التقيض من النصوص الأخرى فلا وجود لدليل داخلى يدعم ذلك . إن الشخصية الكامنة وراء هذا الوحي هى واحدة بوضوح ، كما أن ترابطه يعلو بشكل هائل على احتمال كونه نتاج مجهود جماعى . ومثلما يصرح القرآن :

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨] .

التفسير المنطقى الوحيد الذى فى مقدورى التوصل إليه هو أن محمداً ينبغى له أن يكون أعظم عبقرية إنسانية ، حيث إن التاريخ قد عرف العديد من العقول الموهوبة إلى حد يجاوز المعتاد ، لكن أيًا من هؤلاء لم يتسن لهم سبق أزمانهم وتجاوز أماكنهم مثلما قد فعل هو فى الحقيقة : كان «أينشتين» فيزيائيًا يثير الانبهار ، لكن إتيانه وتطويره لنظرية النسبية سبقه قرون من الكشف ، كان علم الفيزياء يتحرك فى اتجاهها لبعض الوقت . ولو لم يأت «أينشتين» بنظرية النسبية فى الوقت الذى فعل فيه ذلك ، كان من شبه المؤكد أن يأتى بها أحد أقرانه بعدها بوقت قليل . البرهان الحالى الخاص بالنظرية الأخيرة «لفيرمات» الذى أتى به «أندرو ويلز» هو إنجاز هائل ، لكن مئات السنين من التقدم فى مجال علم الرياضا إضافة إلى العمل على

حل هذه المسألة أسهم في الوصول إلى هذا البرهان. «موزار»، و«فان جوخ» و«شكسبير» كانوا شخصيات استثنائية، لكن أعمالهم قامت وعكست توجهات داخل الظروف الثقافية المحيطة بهم. لكن الظهور المفاجئ للقرآن في الحجاز قد بدا مثل حديقة من الزهور نبتت فجأة وهي مكتملة النمو داخل أشد مناطق صحراء الربع الخالي في الجزيرة العربية.

لقد شعرت بأن لو كان محمد قد افترى من عنده القرآن، فكان ينبغي له إلى جانب كونه أشد العقول امتيازاً في التاريخ، أن يكون مثلاً في الإيثار والورع. القرآن هو أصفى وأطهر شهادة على التوحيد في الوجود، كما يسفر عن الالتزام العاطفي المشبوب والعميق بتقديم العون للإنسانية هادياً الرجال والنساء إلى حب الله والحياة في تقوى. كما أنه يبدو أيضاً أن النبي كان مثلاً في التواضع ونكران الذات، حيث يصر النص المقدس بشكل متكرر على أن محمداً مجرد إنسان، وأن دوره الوحيد هو تبليغ الرسالة، كما أنه لا يمتلك قوى فوق العادة، كما أنه مثله مثل أى إنسان آخر يتوجب عليه العبادة ابتغاء للهدى وللمغفرة<sup>(١)</sup>. ويوجه القرآن العتاب إليه كما يصحح له تصرفاته في مناسبات عدة. يندر مثل هذا التواضع من شخصيات تتفوق بشكل كبير على أقرانها من ناحية الذكاء.

لذلك، فإذا كان محمد قد افترى هذا القرآن من عنده، فإن الأمر قد يبدو أنه وهب ذاته من تلقاء نفسه من أجل خدمة الله والإنسانية ومن أجل تعليم الفضيلة، لكن مع ذلك فلا يمكنني تجاهل أنه ربما قد اخترع أيضاً أشد الخدع جرأة، ناسجاً نصاً يبدو في ذاته بوصفه اتصالاً مباشراً لله من خلاله. من غير المقبول أن شخصاً قادراً على مثل هذه الكذبة الجبارة، أن يصدر عنه أيضاً مثل هذا النداء الهائل الداعي إلى الحق وإلى الخير. وقد تلاعبت أيضاً مع فكرة أن النبي قد كان ذا شخصيات متعددة، لكن القرآن ليس بكل تأكيد هلاوس لشخصية متشظية، بالقدر ذاته الذي لا يمكن به أن يكون عملاً لأفراد عدة.

(١) [الأنعام: ١٠٧] [يونس: ٤٩] [هود: ١٢] [الرعد: ٣٨] [الإسراء: ٩٠ - ٩٤] [الفرقان: ٧] [الإسراء: ٧٤ - ٧٥].

توجب علىّ فى نهاية الأمر أن أضع أمر مصدر القرآن جانباً. وعلى أية حال، لم يكن ذلك من تمام أهدافى. لقد قررت أن لو كان محمد قد كتب القرآن فإنه يكون بذلك وبلا شك أعظم البشرية قاطبة، وإذا كان غيره كتبه، فإن صاحب النص الحقيقى قد انزلق خارج التاريخ بشكل أو بآخر.

### اختيار صعب

أتذكر يوماً عندما كنت فى حصة دين فى الصف الخامس وكنا ننشد ونرتل بانسجام قانون الإيمان الذى على شكل سؤال وجواب، وعندما وصلنا إلى النص القائل «إن العقيدة الكاثوليكية هى الدين الصحيح الوحيد» عندها رفعت يدي.  
«نعم يا جيفرى» سألتنى الأخت برناديت.

«اختاه، أليس كل مدرس للدين يقول لتلامذته بأن دينهم هو الدين الصحيح الوحيد؟ أنا أعنى أنه ليس فى مقدورى تخيل أن معلمة للدين تخبر تلامذتها أن ديناً آخر هو الدين الصحيح الوحيد. كيف يتأتى لنا فى الواقع معرفة ذلك؟»

وحدقت الأخت برناديت فى وجهى وهى مشدوهة لمدة ثانيتين، ثم عقت قائلة بحذر وببطء إلى حد ما «على أن أسأل الأب (هانوفر) عن ذلك، وسوف أعود إليك بالإجابة».

لم ترجع الأخت «برناديت» بالإجابة على الإطلاق، وفى الأغلب فإنها لم تتذكر، وبالتالي لم أكرر أنا السؤال، لكنه استمر فى إلحاحه علىّ.

لقد أخبرنى صديق ذات مرة «كلما ازدادت عظمة العقل، ازدادت صعوبة الاختيارات» ويبدو أن القرآن يؤكد النقطة نفسها فى قصة الزوجين الأولين ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣١) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٢) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ

تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٣٠-٣٩﴾.

فبمجرد بيان أن الإنسان تتفوق إمكاناته على الملائكة بسبب ذكائه الأكبر، فقد أعد المسرح لكي يعرض آدم وحواء عرضهم الأول الخاص بالإرادة الحرة. يبين لنا القرآن أن الناس سيتعرضون لوساوس شيطانية وإلهامات ملائكية، وأن أوضاع الناس في الدار الآخرة سوف تتحدد بشكل كبير عن طريق الاختيارات التي يقومون بها في زمن حياتهم الدنيا.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يشدد القرآن على وجوب أن يكون الإيمان اختياريًا. الإيمان الحقيقي هو اختيار، لا بد أن يتأتى كفعل صادر من الإرادة والعقل، حيث ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ويؤكد القرآن على أن في مقدور الله خلق الناس مبرمجين؛ لكي يخضعوا خضوعًا تامًا لإرادته، لكن الله له مشيئة مختلفة.

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

الله القدرة على أن يجعل كل البشر أمة واحدة في الخضوع له - نسخاً روحية مستنسخة من بعضها البعض - لكنه عوضاً عن ذلك أعطانا ووهب لنا ملكة التفكير من أجل الاختيار ومنحنا القدرة على تنفيذ اختياراتنا وصولاً إلى نهاياتها المتوقعة. وعلى الرغم من أن اختياراتنا قد يمتد تأثيرها إلى آخرين، فإننا نحن أول المتفهمين من اختياراتنا.

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل: ٩٢].

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الزمر: ٤١] (١).

وقد يبدو من الآيات السابق بيانها أن الرجال والنساء أحرار حرية مطلقة، وأن الله يسمح للعالم بأن يجرى في مساره بدوئماً تدخل. وعلى الرغم أنني كنت أفضل مثل هذا الوضع من جانب القرآن بوصفى ملحدًا، لكن الأمر ليس على هذا المدار. يخبرنا القرآن أن الله القدرة والسلطان على جميع الأشياء، وأن لا شيء يحدث بدون إذنه، وأن الله كثيراً ما يؤثر على مفاهيم الناس وأحكامهم، ويهدى المؤمنين، ويسمح للعصاة بالسير على غير هدى، ويحرك الدراما الإنسانية؛ لكي يضع الناس في مواضع للاختبار أو للابتلاء. هيمنة الله على الخلق هي في القرآن شاملة لكل شيء مما يترك الانطباع بأن لا شيء على التقريب يحدث بمحض الصدفة، وأنه داخل كل مواجهة شخصية وكل فعل دنيوي هناك نفعات إلهية مبثوثة من أجل النمو الروحي. وعلى الرغم من أن القرآن يؤكد على أن الرجال والنساء أحرار في اختياراتهم، فهم ليسوا على هذا القدر من الاستقلال الذي يظنون أنهم عليه. فتتوالى النفعات الإلهية التي تعرض عليهم باستمرار من أجل اتخاذ القرارات الأخلاقية والروحية.

وفيما يبدو فإن وهم هذا الاستقلال ضروري من أجل النمو الإنساني ومن أجل التعلم، حيث إننا لو أدركنا حضور الله الشامل بشكل مستمر، فستصبح الغواية

(١) انظر أيضاً [يونس: ١٠٨]، [الإسراء: ١٥].

وكذلك معها التطور الأخلاقي والروحي شبه مستحيلين . يعود الأمر في جعل اتخاذ القرار والاختيار بين فعل الخير أو فعل الشر ممكناً وبالنسبة إلينا حقيقياً في جزء منه إلى الانطباع الذي لدينا بأننا تفصلنا مسافة عن الله . لذلك ، حدثت الغواية للزوجين الأولين «في الجنة» ، عندما أدركا أو فهما أن الله غير موجود هناك . وبالمثل ، عندما استعدا للانتقال إلى المرحلة التالية من حياتهم ، أخبرهم الله قائلاً: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ مشيراً إليهم بأنهم سوف ينفصلون عن الله . لذلك ، يخبرنا القرآن أن الله - في الحقيقة - قريب منا على الدوام .

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْمُهُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] .

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥] .

يعلو توهم الإنسان باستقلاليتة ، ويكثف من ممارستنا الاختيارية وخبراتنا التعليمية في الحياة ، كما أنها تتيح لنا فرصة لتطبيق ما تعلمناه بشكل مستقل . للتعليم مرحلتان أساسيتان ، سواء أكان داخل قاعات الدرس أو خارجها ، تلقي الدرس ثم المحاولة ، وتصل المعرفة إلى مستوى آخر عندما تتعرض للاختبار .

﴿وَتَلْبَسُونَكُمْ بَشِيءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] .

﴿تَلْبَسُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨].

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ [الأعراف : ١٦٨].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك : ١-٢].

يصقل إدراكنا للاستقلالية أيضاً من إدراكنا للوقت والزمن، حيث يتيح لنا الشعور بأن العواقب الشخصية المترتبة على اختياراتنا، وكذلك لقاءنا مع الله في الآخرة يبعد في الزمن بعيداً داخل المستقبل. لذلك فلسنا نشعر بوجود مسافة تبعدنا عن الله فقط من الناحية المكانية، لكن بمسافة أخرى أيضاً على المستوى الزمني. ومرة أخرى يخبرنا القرآن مع ذلك من أن إدراكنا للزمن ليس موضوعياً على وجه الحقيقة، وأنا سوف ندرك ذلك عندما نعبر إلى الحياة التالية.

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس : ٤٥].

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢].

﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه : ١٠٣].

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه : ٢٠].

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

الوقت أو الزمن بالكيفية التي ندركه بها هو في هذه الحال مثال آخر على أوهامنا المعيشة. ما يمثل بالنسبة إلينا المرور البطيء والسريان المتناقل للتاريخ لا يمثل بالنسبة لله إلا كلمح بالبصر<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من أننا نرى إرادة الله وهي تتكشف على مدار العديد من الأيام والسنين، فإن ذلك لا يمثل لله إلا كلمة أو أمرًا واحدًا «كن! فيكون»<sup>(٢)</sup> كما يعرض القرآن أيضًا للصفة التوهمية المتعلقة بالزمن عن طريق مقارنة «أيام الله» بالأيام الدنيوية، حيث يقول: «إن «يوم الله» مقداره ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]، ويعادل ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]، بذلك فإن الزمن حسب إدراكنا له ليس إلا موضوعًا آخر من موضوعات الوجود الذي نحيا فيه لا يحمل أية صحة حقيقية خارج نطاق هذا الوجود، حيث يشمل علم الله وإرادته كل الزمن والمكان داخل «لحظة» مفردة وأزلية خارج نطاق الزمن.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠].

وليس وهم الانفصال والابتعاد عن الله من خلال الزمن والمكان هو الوهم الوحيد الذي نعيش داخله، حيث يؤكد القرآن على ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، [الحديد: ٢٠]، كلما توغلت في قراءة كل صفحة من صفحات القرآن، كلما أصبحت صورة الحياة بوصفها اختبارًا بالنسبة لى أكثر قوة، وبوصفها سياتًا لحل المشكلة التي خلقت كتحدٍّ أمام البشر ولحفز النمو الأخلاقي والفكري والروحي لهم. يخلق الله لنا وهم الانفصال عنه من أجل تحفيز

(١) على الرغم من أن يوم القيامة يقع من وجهة الإدراك البشرى في المستقبل البعيد، ينص القرآن على أنه أقرب من اللمح بالبصر.

﴿ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧].

(٢) [البقرة: ١١٧]، [النحل: ٤٠]، [يس: ٨٢]، [غافر: ٦٨]، [القمر: ٥٠].

نمو شخصياتنا مثله في ذلك - والله المثل الأعلى - مثل المعلم الذى يغادر غرفة  
الدرس؛ لكى يراقب تلامذته أو تلامذتها من خلف مرآة ترى من ناحية واحدة. لقد  
وضعنا الله داخل بيئة معاكسة، لكن مسلحين بالعقل وبالقدرة على الاختيار،  
متروكين لأنفسنا - فى الظاهر - من أجل بلوغ أقدارنا.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ  
(٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس :  
٩٩-١٠٠].

تقدم هاتان الآيتان موجزاً شديداً لموقف القرآن تجاه الإرادة الإلهية والإرادة  
الإنسانية . لا يريد الله إكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين ، بدلاً من ذلك فلا بد للإيمان  
من أن يأتى من خلال الاختيار الحر . وبالرغم من أنه لا بد من التوصل للاختيار  
بشكل حر ، لكنه لا يعنى ذلك على الإطلاق الاستقلال عن الله ، حيث إنه - جل  
وعلا - هو الذى ينمى ويتلقى ويستجيب لذلك الاختيار بالأسلوب الواضح ،  
وكذلك بالأسلوب الخفى . . لكن الله سوف يترك هؤلاء الذين يرفضون هذا  
الاختيار بعناد وبغير تعقل إلى عدم إيمانهم وصولاً إلى خسرانهم المبين . إن  
الاختيار والعون الإلهى (النفحات الإلهية - التوفيق الإلهى) والذكاء هى المفاتيح  
الثلاثة المؤدية إلى الإيمان الحقيقى .

لكن لماذا هو الأمر كذلك وبهذه الكيفية؟ ما هو الإيمان الذى يتوجب عليه أن  
يشمل العقل وكذلك الاختيار؟ لقد اعتدت أن أفكر فى الإيمان بوصفه اعترافاً  
بحقيقة مفترضة ثم الخضوع لتلك الحقيقة التى قد زرعت داخل الناس بكل تأكيد .  
وفى الحقيقة ، يشير القرآن إلى أن الكائنات الأخرى ذات طبيعة مجبولة أو ذات  
غريزة عبادة وخضوع لله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ  
مُكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١] .  
ينبغى للإيمان أن يمثل للإنسان شيئاً أكثر عظمة وأشد تعقيداً ، لكن ما هو إذن؟

لقد شعرت وكأني أشاهد شاشة جهاز تليفزيون يتناوب عليها وضوح الصورة واهتزازها. ظننت في بعض الأوقات أنني بدأت في رؤية الصورة الكبيرة، وعندها تبدأ سحب الاعتبارات الأخرى في التراكم في طريق الرؤية. كانت المعاناة الإنسانية تمثل لى موضوعاً رئيسياً يتسبب عنه فقدان تركيز الرؤية. ما هو الدور المحتمل الممكن أن تلعبه هذه المعاناة؟

## لماذا أنا؟

«لماذا كان يتوجب حدوث هذا الأمر لى؟» تساءلت «جيردا» بغضب «أنت تدخين علبة من السجائر كل يوم، مع ذلك فأنت فى غاية الصحة! أنا لم أذخن سيجارة واحدة على الإطلاق فى حياتى ثم أصاب بسرطان فى الرئة. كان ينبغى أن تكونى أنت المصابة! كان ينبغى أن تصابى أنت بالسرطان ولست أنا!». .

انتابنى الغضب نتيجة لما قالته «جيردا» «لراجية»، لا يمكن القبول بأن يتمنى أحد لزوجتى الإصابة بالسرطان، وهى الشخص الأكثر دفئاً ورقة وعطفاً بين كل من عرفتهم على الإطلاق، بغض النظر عن الحالة التى كانت فيها «جيردا» .

قلت لراجية: «هذه مقولة غريبة تتفوه بها إنسانة ملحدة بتطرف. إلى من تتوجه بشكواها - إلى الطبيعة؟ هل تودين القول لى بأن ليس فى مقدورها - من المنظور الخاص بها - أن ترى كيف أن واحدة من تسلسل الأسباب اللانهائية على وجه التقريب، إضافة إلى التأثيرات التى حدثت منذ الانفجار العظيم قد قادت إلى الإصابة بالسرطان؟ لماذا يتوجب لها أن تستبعد واحدة من أحداث الحياة غير القابلة للحصر، إذا لم يكن هناك الله؟» .

وقد تلقينا مكالمة من «جيردا» بعدما رحلت إلى ألمانيا من أجل العلاج. لقد أخذتني المفاجأة عندما سألتني: «هل تدعو الله لى؟» .

وعلى الرغم من أنني قد قلت لـ «جيردا» بأننى سوف أدعو لها الله، فقد كان ظنى أنه على الأرجح أن الأمر قد يكون أكثر فاعلية إذا ما دعت هى الله بنفسها.

«إذا ما كتبت لى النجاة من هذا الأمر، فسوف أبادر بدراسة جادة للدين» قالتها مقسمة بكل جدية، وقد اختلج صوتها من الانفعال.

تعرضت «جيردا» إلى علاج فى غاية الحدائة من قبل أطبائها فى ألمانيا. وعلى الرغم من أن إصابتها بالسرطان كانت متقدمة إلى حد بعيد وأن الأمل كان ضعيفاً، كان نجاح العلاج جلياً، وعادت «جيردا» بعدها إلى مدينة لورانس خالية من أية آثار يمكن تعقبها للمرض. أحدثت معركة «جيردا» مع المرض تغيراً عميقاً فيها، لكن التغير لم يكن بالأسلوب الذى قد يتوقعه المرء.

بقدر ما أمكنتى رؤيته فإنها لم تنجز على الإطلاق وعدها «بالقيام بدراسة جادة للدين»، وظلت على إلحادها المتطرف والصاحب كما كانت، لم يكن فى الأمر مفاجأة، حيث يحدث للعديد من غير المؤمنين مراجعة فكرية خلال أزمة ما، لكن نظرتها إلى الحياة تحولت إلى داخل ذاتها بشكل درامى. دائماً ما كانت «جيردا» تدلل أصدقاءها وكانت شديدة الولاء لهم والكرم معهم، عندما طرقتنا هذه النقطة فى محادثة لنا قالت لى «كانت تلك غلطة فظيعة من جانبى. لقد تعلمت كم هى غالية هذه الحياة. كان غباء منى أن أعطيت من نفسى الكثير البالغ للآخرين، لن أقوم بفعل ذلك مرة أخرى على الإطلاق».

بعد مرور ما يقرب من عام ونصف العام على حصول «جيردا» على تقرير بتمام الصحة والعافية، وجد الأباء الخاصون بها أن مرض السرطان قد عاودها، وفى هذه المرة أصر الأطباء على أنه ليس بيدهم شىء يمكنهم فعله لها، حيث كان المرض قد انتشر إلى حد بعيد.

وقد اشتكت إلى زوجتى مرة على حين غرة «أى نوع من الأرباب هذا الرب الذى يفعل ذلك معى».

عادة لم تكن «راجية» تتجاوب مع النقد الساخر العنيف الموجه للدين الذى تبديه «جيردا». إذا كانت «جيردا» راغبة فى النقاش الهادئ والمحترم حول الدين فإن «راجية» تكون فى غاية الترحيب بفعل ذلك، لكن عندما تبدأ الأولى فى النبرة التهكمية تفضل «راجية» إهمالها.

أجابت «راجية» بدون تفكير: «ربما يكون هو الرب الذى يعطيك الفرصة الثانية».

لم تكن «جيردا» من النوع الذى يقنع بأن يترك للخصم الكلمة الأخيرة، خاصة عندما يكون النقاش حول الدين، لكنها ظلت على صمتها مستغرقة فى تفكير حزين، وربما يعود الأمر إلى حالتها الصحية المتدهورة.

وقد عزلت «جيردا» نفسها عن أصدقائها خلال شهور مرضها الأخيرة، وقالت لـ «راجية» من خلال محادثة تليفونية إنها لا ترغب فى أن يراها أحد «على هذه الحالة»، كانت «جيردا» وزوجها يقومان بتدريس الرياضيات فى جامعة كانساس، وقد علمت بخبر وفاتها من المذكرات الإدارية للقسم. وقد بينت المذكرة بأن الأسرة لن تقيم حفل عزاء من أجلها، وأن كل من يرغب فى تقديم العزاء فى مقدوره التبرع من أجل تمويل منحة دراسية خصصها زوجها لذاكرها.

دائمًا ما شككت المعاناة الإنسانية مشكلة هائلة فى طريق الفكر الدينى هل هذه المعاناة من أجل تقديم الترفيه لآلهة متخاصمة ذات نزوات وقد أصابها الملل؟ هل هى عقاب على طباعتنا الخاطئة؟ هل هى أمر يتوجب علينا النجاة منه؟ هل هى مظهر من مظاهر الخلق الضرورية الواجب تجاوزها من خلال التدريب الروحى والتأملى؟ هل هى نتاج ضربات الصدفة التى تحدث داخل كون لا إله له؟

تسلّم كل هذه الأسئلة بموقف بديهى يقول بأن المعاناة الإنسانية هى ضرب من التدمير غير المرغوب فيه. يبدو ذلك طبيعياً حيث إنه يعكس المنظور الإدراكى البشرى، ووجهة نظر المرء الذى يشعر بأنه ضحية. مع ذلك، فإن للقرآن وجهة نظر مختلفة تتعلق بالمعاناة الدنيوية للبشر. يقول القرآن بأنها عنصر ضرورى ومحورى فى عملية النمو الإنسانى، وأن جميعنا الصالح منا والطالح، والفاجر منا والتقى، والمؤمن منا والكافر يتوجب علينا بل وينبغى لنا أن نذوق من هذه المعاناة.

﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

[البقرة: ٥٥-١٥٦].

لذلك ينبغي لكل واحد أن يمر بتجربة الألم، والفقدان، والضيق والشدة والمصائب أثناء حياته الأرضية، بغض النظر عن درجة تدينه. وقد شعرت بأن ذلك هو اعتراف صريح، لكن القول ﴿وبشر الصابرين﴾ قد بدا لي في أول الأمر كما لو كان في غاية الدموية والغلظة في سياق آية تتحدث عن البؤس البشري. هل يغفل القرآن عن الضرر الفادح الذي تحدثه المعاناة الحادة لشخصياتنا؟ وبدلاً من ذلك، يؤكد القرآن على مجرد النقيض، بأنه في مقدورنا الحصول على فائدة هائلة عن طريق الكيفية التي نستجيب بها حيال مصائب الحياة، وأن هذه الاستجابة مرتبطة ارتباطاً لا تنفصم عراه بما سنكون عليه في الدار الآخرة:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

لقد توقفت عند هذه الآية وأعدت قراءتها عدة مرات. ظللت أفكر: ما علاقة المعاناة بالجنة؟ لم لا تتجاوز مرحلة الحياة الدنيا هذه، وتضعنا مباشرة في الجنة؟

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لم لا؟ ما ضرورة المعاناة؟ ما الرابطة بين المعاناة والجنة؟ لماذا لا يوضع الأمر بشكل أكثر وضوحاً؟

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى ماذا ترمى هذه الآية؟ ما هو الذى لم أفهمه هنا؟ ﴿مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ما يتوجب ملاحظته هنا أن هذه الآية تصور أن المعاناة البشرية تشمل المؤمنين الحق - ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ - وكانت بلواهم شديدة - وزلزلوا حتى إنهم استغاثوا صارخين: متى نصر الله؟

تساءلت: لماذا يتوجب على الأخيار من الناس أن يعانون الضيق والفرغ؟ لماذا يتوجب علينا أن نحيا وجوداً مهتداً ومحفوظاً بالمخاطر إلى هذه الدرجة البعيدة؟

﴿ تَلْبُلُونُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٨٦].

تابعت التفكير : لماذا كتب علينا أن نموت ، إذا كنا سوف نحيا مرة أخرى ؟

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥]

يواصل القرآن تكرار التذكير ، وخاصة بعد بعض الآيات التي تشدد على أهمية المعاناة الدنيوية للبشر ، إننا سوف نرجع إلى الله . تؤدي المعاناة إلى جعلنا أكثر قرباً من الله بأسلوب ما ؟

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الأنشاق : ٦].

كيف نكدح إلى ربنا كدحاً؟ كيف تجعلنا البلوى ويدفعنا الألم لنكون أكثر قرباً من الله؟

ما في مقدورى العثور عليه هو التأكيد على ذلك فقط ، لكننى لم أعثر على إجابة . فى مقدورى رؤية تصميم النص المقدس بكل وضوح على أن المعاناة هى عنصر جوهري من أجل التطور الإنسانى ، لكننى إلى الآن لم أفدر على رؤية سبب وجوب ذلك .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : ٤-١٧].

كانت الآيات السابقة بالنسبة لى من النوع الذى لا يفارق المرء ويفتح عينيه ، وهى متخللة فى ثنايا القرآن ، بحيث تغير من زاوية نظر غير متوقعة إلى زاوية نظر أخرى بأسلوب مفاجئ ودرامى ، وهو النوع الذى كان نزالى معه من الصعوبة بىمكان .

لقد أصابنى التأكيد على ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ بالصدمة بسبب اتسامها بالصراحة الصارمة ، على الرغم من أننى رأيتها - عند إمعان التفكير - متسقة بشدة

مع كل شيء قد صرح به القرآن حتى هذه اللحظة . ولم يكن فى وسعى إنكار أن الجنس البشرى قد بدا مؤهلاً بشكل فائق إلى حد كبير من أجل النضال، يبدو أن جنسنا البشرى يجد نموه وازدهاره فى الصراع بوصفه تراجيدياً، كما أن الكفاح أو النضال قد شكلا علامة وقادا تطورنا خلال مسيرة التاريخ . وحتى حينما لا تكون المشقة من نصيبنا، فإننا ننشد المشقة فى هيئة تحديات ومناسبات من صنع الذات . لذلك فبينما قد يكون الناس قد خلقوا ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ فإن القرآن لا يضع التركيز هنا على الدور الذى لعبه هذا الجزء فى تطور عالم البشر، إنما هو معنى أكثر بتبعاته الأخلاقية والروحية، ويبدأ بالتحذير من تأثيراته السلبية المحتملة، ينتهى النضال إما بالنجاح وإما بالفشل ومن ثم قد يقود إما إلى الاستكبار وإما إلى القنوط على الترتيب، وفى كلتا الحالتين إلى فقدان التقوى أو فقدان الثقة فى سلطان الله، وأحياناً إلى اللادرية أو الإلحاد . لذلك ينص القرآن على :

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ تلخص حياة سادها النضال من أجل غايات دنيوية فحسب .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

يتكرر هذا البيان القرآنى، الذى يشير غالباً إلى مواهب السمع والبصر والقلب (ويمثل الأخير بكل وضوح الذكاء البشرى بأشد معانيه عمومية)<sup>(١)</sup> بوصفها عطايا غالباً ما يسىء الناس توظيفها . هنا يخبرنا القرآن بأنه من خلال الملاحظة والاتصال فإن الطريق إلى الوجود الصالح بحق ينبغى أن يكون جلياً واضحاً، كما ينبغى أن يكون بديهياً، بمجرد دراسة أنواع الحياة التى حولنا فحسب، ما يجعل الناس ينعمون بالرضا الحقيقى .

وعند قراءتى لهذا السطر من الآية ارتدت أفكارى قافلة تجاه أمى، فعلى الرغم من كل الصعاب التى واجهتها، فدائماً ما كانت تنعم بالسلام مع نفسها .

(١) [الأعراف: ١٩٥]، [النحل: ٧٨]، [الحج: ٤٦]، [السجدة: ٩]، [الحجرات: ٢٦]، [الملك: ٢٣] .

دائماً ما كانت تعلمنا أن مفتاح السعادة يكمن في العطاء للآخرين ، وكلما ذهبت أفكار تجاه أشخاص آخرين عرفتهم من أهل الرضا ، أدركت أنهم هم أيضاً يحيون على نفس المبدأ .

ظللتني شعور غريب من الأسى عندما استغرقتني ذكرياتي حول أمي ؛ بسبب معرفتي بأنني لم أعاملها بشكل عادل . وعلى الرغم من أنني أحببتها واحترمها ، لكنني كنت على الدوام أظن بأنها تحيا في وهم ، وأنها كانت تمثل النسخة النسوية من «دون كيشوت» .

وكنت دائماً أتساءل عن كيف كانت بهذا العمى تجاه الحقيقة ، وكيف لم يكن في مقدورها رؤية أن الحياة ليست هي في العطاء على الإطلاق ، لكن الحياة هي في البقاء ، والمنافسة ، وحماية الذات ضد حوادث الحياة وأخطارها . لكن في مقدوري الآن أن أرى من خلال حياتي الشخصية وتلك التي للآخرين بأن ليست هذه الحياة - حياة البقاء والمنافسة - هي الطريق إلى السلام الداخلي . لو كنت قد توقفت فقط من أجل التفكير فيما رأيته يدور حولي ، لكان في مقدوري أن أتبين بسهولة أن هناك طريقين فحسب ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ في الحياة ، وأنتى كنت أوصل سيرى في طريق الندامة . ومثلى مثل الكثير من الآخرين ، فقد تعاميت عن «اقتحام العقبة» .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۙ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۙ ﴿ فَلَ رَقَبَةَ ۙ ﴾ (١٢) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ ۙ ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۙ ﴾ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۙ ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۙ ﴿

يمثل «اقتحام العقبة» اختياراً للكلمات مثيراً للاهتمام . فمن جانب فقد تعنى مهمة عسيرة تتطلب النضال والصبر ، ويتسق ذلك مع كل شيء يقوله القرآن حول الحياة الناجحة . ومن جانب آخر ، فقد يرمز «اقتحام العقبة» أيضاً إلى طريق للرقى الروحى ، أى ارتفاع رأسى صعوداً إلى القرب من الله . ويرجع الفضل جزئياً إلى القرآن فى أن أصبح المفهوم أو المعنى الأول ميسراً على فى قبوله . فى مقدورى أن أرى أن حياة قد أوقفت على مساعدة الآخرين قد تكون حياة شاقة لكنها تستحق المكافأة ، وأنه على الرغم من نشدان أسلوب الحياة الموقوفة على الذات تبدو من

السهولة بمكان، لكنها ليست الطريق المؤدية إلى الرضا الفعلى. مع ذلك، لم يكن في مقدورى رؤية الرابطة بين ارتقائنا الذاتى وبين علاقتنا مع الله، هل هناك علاقة عضوية تربط بينهما؟ هل تؤدى تضحيتنا الذاتية إلى جعلنا أشد قرباً من الله بشكل حقيقى إلى حد ما؟ وإذا كان الأمر غير ذلك، فإنه يبدو ترتيباً على ذلك بأن مرحلة وجودنا الأرضى كان يمكن تجنبها، وكان يمكن جعلنا أكثر قرباً من الله بدون الحاجة إلى معاناة الشقاء الدنيوى. مع ذلك يحافظ القرآن على أن حياتنا على الأرض تستوفى هدفاً رئيسياً.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان: ٣٨].

إننى أفترض أن الجانب الطيب من الأمر هو أنه خلال قراءة القرآن فقد توصلت إلى رؤية أن الكثير من اعتراضاتى على وجود الله لم تكن غير قابلة للاختراق مثلما كنت أعتقد فى يوم ما، وقد دفعتنى إلى التشكك فى القواعد التى تأسس عليها تمسكى بالإلحاد.

أما الجانب غير الطيب من الأمر، فقد تمثل فى أننى قطعت بضعة وثلاثين صفحة فقط فى قراءتى للقرآن، وما زلت غير قادر على العثور على الهدف الحقيقى الذى من أجله خلقت الحياة. لم أجد لدى أصدقائى المسلمين المساعدة المرجوة. وغالباً ما كانوا لا يفهمون فى الحقيقة أسئلتى، وكانت الإجابة الوحيدة التى لديهم هو أننا هنا على الأرض حتى يمكن مساءلتنا فيما يبدو على نحو تحكمى عند انتقالنا للحياة الآخرة. كان من الواضح أن هذه المعرفة كافية بالنسبة لهم، وأنهم لم يحاولوا على الإطلاق النفاذ داخل عمق الأمر، لكن ذلك لم يكن كافياً لى، وكاد اليأس يتملكنى

من العثور على تفسير عقلى . وها هو القرآن . . يجعلها تبدو كما لو كان الأمر فى غاية البساطة ، مثل حالتى وأنا أشرح لطلابى أمراً بديهياً تعثروا فى الحصول عليه عندما كانوا يضحون من تعقيد مسألة ما . وتساءلت بدورى إذا كنت قد فاتنى شىء ، وإذا كنت أجعل من الأمر أكثر صعوبة . توصلت إلى قرار بأن المجال الطبيعى الواجب البحث فيه هو داخل الوصف القرآنى للعلاقة بين الله وبين الإنسان . كيف وصف القرآن العلاقة بين الله وبين المؤمنين ، وكيف وصف المؤمنين الحقيقيين ، وكيف وصف الله ، وما العلاقة بين كل ذلك إذا كانت هناك علاقة ما ؟

وقبل التوجه إلى هذا المسار يتوجب على أن أذكر أن أوصاف القرآن للجانب الوهمى للحياة قد قضت على بعض اعتراضاتى على المعاناة الإنسانية على الأرض ، مستعيداً فى الذاكرة أن الناس عندما يدخلون إلى الحياة الآخرة ويوجه إليهم السؤال عن مدى المدة الزمنية التى قضوها فى الحياة على الأرض ، فلن تجد لديهم إلا ذكريات مبهمة ومتباعدة ، كما لو أنهم استيقظوا لتوهم من أحد أحلام النوم . هذه الصورة للحياة التى تشابه صورة الحلم قد أبرزتها وأضفت عليها قوة العديد من الأوصاف القرآنية التى تصف يوم القيامة . سوف يدوى نفير (الصور) لإيقاظ الموتى ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٦] سوف يندفع غير المؤمنين خارجين فى رعب من قبورهم التى يشير القرآن فى وصفها إلى أنها «أماكن نومهم» سيكون الناس سكارى ومصعوقين ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، كما سيكونون زائغى الإدراك . سوف تبدو لهم حياتهم الأرضية كما لو كانت وهماً ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ﴾ [الكهف : ٤٥] . سيزيغ بصر الناس مثلما يكون عليه حال المستيقظ تَوّاً من نومه ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ﴾ [القيامة : ٧] ، ثم يبدأ بصرهم فى الاحتداد ويبدأون فى الإدراك المتعمق بالحقيقة الواقعة ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] ، يقارن القرآن فى الآية ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾

فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْاٰخِرَىٰ اِلَىٰ اَجَلٍ مُّسَمًّى اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ ﴿ [الزمر: ٤٢] بين الاستيقاظ من النوم وبين بعث الموتى . تومى هذه الأوصاف إلى أنه بغض النظر عن المعاناة التي نتحملها فى حياتنا على الأرض ، فإن استعادتنا لهذه المعاناة عند دخولنا إلى الحياة الآخرة سوف تشابه ما عليه حال النائم عن استيقاظه أو استيقاظها من كابوس ، كل المعاناة وكل الألم الذى بدا لنا هائلاً وحقيقياً خلال وجودنا على الأرض سوف يبدو لنا عند دخولنا المرحلة التالية من وجودنا بما لا يزيد عن وهم بعيد يشبه شيئاً من اختراع خيالنا إلى حد بعيد . لا يقول القرآن بأن وجودنا على الأرض هو وجود غير حقيقى ، لكنه يقول إن المعاناة التى نخبرها خلال هذا الوجود سوف تبدو لنا غير حقيقية عندما ندرك إدراكاً حسيّاً الحقيقة الأعظم للآخرة .

#### ما علاقة الحب بذلك؟

يتحدث القرآن مراراً عن حب الله ، ﴿ اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، [آل عمران: ١٣٤ - ١٤٨] ، [المائدة: ١٣ - ١٩٣] ، ﴿ وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، [التوبة: ١٠٨] ، و ﴿ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ، ويحب المتوكلين ﴿ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢] ، [الحجرات: ٩] ، [المتحنة: ٨] ، و ﴿ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ [الصف: ٤] ، كما أن المؤمنين يحبون الله بدورهم .

﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اٰنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ وَالَّذِينَ اٰمَنُوا اَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

﴿ قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

وينبغي التنويه بأنه حيثما يصف القرآن الله المحب، فإن ذلك يحدث في شبه اقتصار في سياق علاقته بالمؤمنين المخلصين الذين وهبوا أنفسهم لحب الله المحب وهبوا حياتهم لهذا الأمر. وعلى النقيض فإن هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للشر مثل المستبدين والطغاة والفاستدين والعصاة والكافرين بالله والفاستقين والمكابرين والمعتمدين والمبذرين والخائنين والظالمين قد حرموا أنفسهم من علاقة المحبة هذه<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من أن الأمور التي تربطها نحن في العادة بالحب من مثل الرحمة والرأفة والعطاء والحماية والولاية والعطف والصدق والاعتدال، فإن الله يفيض بكل سعة بكل هذه الأمور على كل واحد<sup>(٢)</sup>، لكن حب الله لا يعرفه بحق إلا هؤلاء الذين اختاروا أن يحملوا نصيباً منه وأن يحبوا ربهم. بمعنى آخر فعندما يتحدث القرآن عن حب الله، فإنه يتحدث عن «علاقة طبيعية» يتشارك فيها ويدخلها بإرادة حرة الله مع المؤمنين، وهي علاقة يرفضها من الناس الكثير<sup>(٣)</sup>.

ومثلما أشرنا سابقاً، يواصل القرآن القول بأن أعمالنا واختياراتنا لا تنقص على الإطلاق من ملك الله شيئاً، لكن الإنسان الفرد هو الذي يكسب منها أو يقع عليه عبء الخسارة. على ذلك يتبين أن الله يريد من خلال هذه التجربة الدنيوية تنمية أناس يشاركونه رابطة الحب<sup>(٤)</sup>. في مقدور كل شخص العمل على تلك الرابطة أو عدم العمل عليها، لكن القرآن يؤكد على أن هناك أناساً سوف يفعلون ذلك بالتأكيد، وأن غوهم وتطورهم يمثل بالفعل الهدف من الحياة الإنسانية على الأرض<sup>(٥)</sup>.

بعدها أصبح السؤال الذي يلح علىّ هو كيف تنمى حياة التقوى من علاقتنا بالله؟ في مقدورى أن أفهم كيف تساهم تلك الحياة في إحساسنا بالحياة الخيرة، وكيف

(١) [البقرة: ١٩٠-٢٠٥-٢٧٦]، [آل عمران: ٣٢-٥٧-١٤٠]، [النساء: ٣٦-١٠٧]، [المائدة: ٦٤-٨٧]، [الأنعام: ١٤١]، [الأعراف: ٣١-٥٥]، [الأنفال: ٥٨]، [النحل: ٢٣]، [الحج: ٣٨]، [الفصل: ٧٦-٧٧]، [الروم: ٤٥]، [لقمان: ١٨]، [الشورى: ٤٠]، [الحديد: ٢٣].

(٢) [البقرة: ١٠٧]، [النساء: ١١٠]، [الأنعام: ٦٢]، [الأعراف: ١٥٦]، [يونس: ٣٠]، [الرعد: ٦]، [الزمر: ٥٣]، [غافر: ٧]، [الشورى: ٢٨].

(٣) [الإسراء: ٨٩]، [الفرقان: ٥٠]، [النمل: ٧٣].

(٤) قارن إجابة السؤال التاسع في هذا الفصل.

(٥) [المائدة: ٥٧]، [الحجر: ٣٩-٤١]، [الإسراء: ٦٥].

تعطينا قيمة ذاتية وسلاماً داخلياً أيضاً، لكن كيف تجعل حياة التقوى منا أكثر قدرة على الانتماء لله؟ ثم ألم يكن من الممكن الحصول على هذه الرابطة بدون النضال والمعاناة على الأرض؟ ألم يكن من الأسير والأبسط بمرمجتنا على حب الله؟ وظللت أقل راجعاً إلى القضايا نفسها.

### ماذا تريد مني؟

ليس من العسير العثور داخل القرآن على ما يتوقعه الله من المؤمنين المخلصين يكرر القرآن وصفهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾<sup>(١)</sup> وحيث إن الهدف الرئيسي من وجودنا - حسبما ذكرنا للتو - هو أن يحبنا الله وأن نحب الله، يصبح الإيمان والمعتقد جوهرياً، حيث لا يمكننا أن نكون في علاقة حميمة مع أحد نحن ننكر وجوده.

مع ذلك يظل من غير الواضح كيف تعلى وتوثق حياة التقوى من علاقتنا بالله. تنحصر الإجابة الشائعة في أن الله هو الخير؛ لذلك فإن أعمال الخير من جانبنا تفرحه وترضيه، وإن أعمالنا الشريرة تغضبه، لكن الله قادر على أن يخلقنا غير خطائين، وعلى أن يستغنى عن هذه المرحلة الدنيوية ويضعنا في الجنة مباشرة، ويصبح راضياً عنا منذ البداية. إذا كان الإيمان بالله والحياة في تقوى على الأرض تقربنا منه، فينبغي - تأسيساً على ذلك - أنها تتسبب في ذلك بأسلوب ما غاية في الأهمية، حيث لا يصدر عن الله إلا الحق<sup>(٢)</sup>.

تندرج أعمال الخير الموصوفة في القرآن تحت ما يسمى بالقاعدة الذهبية «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»، لذلك يتضمن القرآن العديد من الأمثلة عن فعل الخير، ويشتمل ذلك على بعض المفاجآت. لقد فاجأني إلى حد ما التشديد القرآني الصارم على النشاط الاجتماعي وعلى «الجهاد في سبيل الله» وعلى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وعلى الرغم من أنه لا يوجد لي مانع أخلاقي يمنعني من العمل لصالح العدل، لكنني لم أتوقع هذا التشديد الكبير على الانخراط في الأمور

(١) [البقرة: ٢٥-٨٢-٢٧٧]، [النساء: ٥٧-١٢٢]، [المائدة: ٩]، [الأعراف: ٤٢]، [يونس: ٩]، [هود: ٢٣]، [الرعد: ٢٩]، [إبراهيم: ٢٣]، [الكهف: ٢-٨٨-١٠٧]، [مريم: ٦٠-٩٦]، [طه: ٧٥-٨٢].

(٢) [آل عمران: ١٩١]، [الأنبياء: ١٦-١٧]، [المؤمنون: ١١٥]، [الدخان: ٣٨].

الاجتماعية والسياسية حسبما اعتدت على الظن والنظر إلى الدين بوصفه أمراً شخصياً وخصوصاً. دفعنى المفهوم الخاص بأن الإيمان ينبغى له أن يضم الفعل الدعوى من أجل الإصلاح الاجتماعى إلى مزيد من التساؤل حول الرابطة بين الإيثار أو حب الغير وبين الترقى فى القرب من الله مدفوعاً بالأمل فى الكشف عن ما يدلنى، فقد أعددت قائمة مختصرة بأنواع فعل الخير التى يحض عليها القرآن، وعلى حسب المتوقع تشكلت القائمة من أفعال متعارف عليها كونياً بوصفها من أعمال الفضيلة. يتوجب علينا على سبيل المثال، إظهار العطف [البقرة: ٨٣-٢١٥]، [الحاقة: ٣٤]، والرحمة [البلد: ١٧]، والعفو عن الآخرين [الشورى: ٣٧]، [الجاثية: ١٤]، [التغابن: ١٤]، والعدل [النساء: ٥]، [الأنعام: ١٥٢]، [النحل: ٩٠]، وحماية الضعفاء [النساء: ١٢٧]، [الأعراف: ١٥٢]، والدفاع عن المظلومين [النساء: ٧٥]، والتماس المعرفة والحكمة [طه: ١١٤]، [الحج: ٢٤]، والكرم [البقرة: ١٧٧]، [المؤمنون: ٦٠]، [الروم: ٣٩]، والصدق [آل عمران: ١٧]، [الأحزاب: ٢٤-٣٥]، [الحجرات: ١٥]، والإحسان [النساء: ٣٦]، والجنوح للسلم [الأنفال: ٦١]، [الفرقان: ٦٣]، [محمد: ٣٥]، وحب الآخرين [الحجرات: ١٠]، [الحشر: ٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٦-٩٧].

ينبغى علينا حض الآخرين وتعليمهم على ممارسة هذه الفضائل [البلد: ١٧]، [العصر: ٣]، ومن خلال الممارسة والتطبيق نتعلم ونترقى داخل هذه الفضائل. وتظهر قصص الأنبياء أن الله بعث رسله ليحضوا أقوامهم وأهلهم على اعتناق هذه المبادئ الأخلاقية، لكن العديد من أقوامهم وأهلهم ظلوا على عنادهم وازدراثهم لتلك المبادئ.

لم تحتو القائمة التى أعددتها على شىء متفرد، أو على شىء يشير إلى أن المعاناة البشرية لم يكن من الممكن تجنبها، أو على دليل رئيسى يودى إلى فهم السبب فى أننا لم نخلق مبرمجين على حب الله، يقول القرآن ببساطة: (أنه يتوجب علينا أن

نكون عادلين، وصادقين، ورحماء، وعطوفين، ومحسنين، وكرماء، نحمل الآخريين، ونعفو عنهم، ومسالمين، وحكماء، ومن أهل المعرفة والمحبة . . إلخ).  
كانت أفكارى ما تزال تدور فى حلقات مفرغة . إن فى مقدورى استيعاب أن هذه السمات تقود إلى الحصول على الصفاء والسكينة، لكنها كيف تقود إلى تيسير الارتباط بالله؟

### ماذا لو كان الله واحداً منا؟

كان الأمر سيصبح من السهولة بمكان لو كان الله واحداً منا، فعندها سوف يصبح فى مقدورى أن أفهمه بما يكفى على الأقل لرؤية الرابطة بين فعل الخير وبين الحميمية مع الإله . فى مقدورى أن أفهم الأشخاص الآخريين؛ لأننا نتشارك فى خبرات متشابهة، ومخاوف وآمال وأحلام ورغبات ومشقات ومتع متشابهة . أستطيع أن أقيم علاقات معهم بسبب أننا أصحاب وجود أساسى واحد ونختلف فقط باختلافات طفيفة، لكن الله ليس واحداً منا . ويذهب القرآن إلى الحد الذى يقول فيه إنه ليس فى مقدورنا فهم الله؛ لأن الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] لا يمكن للأمر أن يكون على غير ذلك، فكيف يتسنى للبشر الذين هم معرضون للموت ومحدودون وأجسادهم مادية وغير مستغنين وتكتنفهم المهالك وضعفاء ومقيدون خلقوا مربوطين بالمكان والزمان أن يفهموا الواحد الأبدى غير المتناهى والمتعالى على المادة والمستغنى بإطلاق، لا تكتفه الحوادث وشديد القوى ومطلق العلم والحكمة وخالق كل شىء الكبير المتعال .

لو كان القرآن قد ازداد تفصيلاً فى مكان ما عن الله بما يعطينا ما يكفى من الوصف حتى تتسنى لنا المقدرة على ملء ما بين السطور . إننى لم أقطع كل هذا السبيل لكى أعثر فقط على أن الله غير قابل للإدراك - مجرد لغز مبهم - وفيما عدا ذلك فليس لدى أى أمل . . وليس من الغريب أننا معشر البشر نميل إلى تأليه ذواتنا أو إلى إضفاء البشرية على الله . وعلى الرغم من أن ذلك الأمر قد خلق لى معضلة عويصة عوضاً عن أن يأتى لى بالحل، لكنه قد منحنى الإحساس بأن الله ملموس

إلى حدٍّ ما، وأعتقد بأننى أريد الحفاظ على كعكتى وأن ألتهمها فى الوقت نفسه، أنا أريد أن يكون الله متعالياً على الخلق علواً كبيراً، وأن يكون ليس كمثلته شىء على الإطلاق من البشر الذين أنتمى إليهم، وأن يكون فى الوقت نفسه قابلاً للإحاطة به .

كم كنت أحمق حين أوهمت نفسى بأن فى مقدور القرآن إلى حدٍّ ما أن يوسع الهوية اللانهائية التى تفصل الله عن البشر، والتى قد تربط معاناة البشر بطريقة منطقية بالحميمية مع الإله . نحن نعانى صعوبة كبيرة فى فهم الشخصية الإنسانية، فكيف يتسنى لنا الحصول على فهم حسى للعلاقة بين الله وبين الإنسان؟ تطلب الأمر قراءة القرآن كله؛ لكى أبرهن لنفسى إن كنت مصيباً طوال الوقت بأنه لا سبيل لفهم عقائدى يتعلق بالوجود الإنسانى .

كنت فى النهاية على وشك الرؤية بوضوح مرة أخرى . كنت مخطئاً فيما ذكرته للتو بأننا نفهم الناس حولنا . نحن لا «نفهم» إنسانيتنا، نحن نعرفها فقط من خلال الممارسة والخبرة، ليس لدى الفهم الكامل عمن أكون أنا، وعن دوافعى وعمما أتوق إليه، وعن أحلامى، وعن عواطفى، وعن ضميرى، وعن نفسيتى . أنا لا أحيط بإنسانيتى عن طريق الفكر، لكننى أعرفها من خلال كونى إنساناً . وفى الواقع فمجممل معرفتى بالإنسانية هى معرفة ذاتية، مما يقود مع ذلك إلى نتيجة لا مهرب منها . حيث إننا لا نقدر على الإطلاق على الاقتراب من ممارسة الألوهية، وذلك على ما يبدو هو موقف القرآن، إذن فليس فى مقدورنا فى كل الأحوال أن نقترب من معرفة الله بأى أسلوب حقيقى أو ذى معنى . اتساقاً مع التشديد على أن الله ليس كمثلته شىء من خلقه - وأن لا وجود حتى لشىء نعرفه يقارن بالله - فقد جعل القرآن من الوصول إلى علاقة مع الله شيئاً مستحيلًا من الناحية العملية . وعلى الرغم من أن صاحب النص (القرآن) قد أدار حملة فى غاية الذكاء، وقدم قطعة لا تضاهى على المستوى اللغوى والعقلى، فإنه لم يقدر على توفير تفسير متسق وكامل فيما يتعلق بالسبب الكامن وراء وجودنا على الأرض . بذلك فلا مجال لأن يشعر صاحب النص بالخجل من أنه لم يستطع هو ولا كل الآخرين إكمال ما لا يمكن تجنبه من النقص، حيث وقعوا فى شرك الفجوة اللانهائية التى تفصل ما بين الله وبين الإنسان .

مثل ذلك بالنسبة إلى إدراكنا أجوف ولم يتبنى شعور من أى نوع بالانتصار، حيث كانت هناك أثناء قراءتى للقرآن أوقات كنت فيها على وشك الاستسلام والخضوع عندما اجتاحتني كلمات صاحب النص - أو صوته - وأعطتني الشعور بأن الله وحده هو القادر على مخاطبتى من خلال هذا النص ولا ينتابنى الخجل من الاعتراف بأن دموعى قد غلبتني فى العديد من المناسبات حتى شعرت شعوراً حقيقياً فى بعض الأوقات بأننى فى معية قدرة هائلة ذات رحمة. وقد أتتني هذه اللحظات «الروحية» على الدوام على حين غرة.

وقد حاولت حتى مقاومتها، والتخلص منها، لكنها كانت عادة فى غاية القوة وغاية التشبع بحيث يتعذر مقاومتها، كما استمرت مقاومتي فى الخفوت مع تقدمي فى الولوج داخل النص. مرت على لحظات كنت فيها على شبه اليقين بوجود إله، عندها شعرت بحضور الواحد الذى سبقت معرفتي به على الدوام، لكنني قاتلت من أجل نسيانه. أصبحت لا أعرف إذا ما كنت فى حال أفضل أو أسوأ بعد قراءتى القرآن لكن ما أصبحت أعرفه هو أننى تغيرت، وأننى لن أعود على الإطلاق إلى الوثوق التام فى إلحادى مرة أخرى.

برغم ذلك كان الوقت قد حان للاستمرار فى حياتي، والتوقف عن العذاب حول وجود الله، والتوقف عن ترك تلك المسألة تعترض سعادتي. أول الأشياء الهامة التى اجتذبتني إلى سان فرانسيسكو هو أنها مكان يعيش فيه الناس حياتهم حتى الثمالة. وبعد انقضاء واحد وعشرين عاماً من التدريس، كنت على أهبة الاستعداد لكى أحصد ثمار مجمل أعمالي، كان وقت بداية استمتاعى بحياتى قد أزف، كانت لدى الدوافع والفرصة والإمكانات. ما زلت شاباً وعزباً ويعتبروننى حسن الطلعة وأحوز مهنة محترمة، كان الوقت وقت الانغماس فى المتعة.

### ادعونى باسمى

عقب ذلك وقبل مرور وقت طويل على انتهاء قراءتى للقرآن كله، وربما بعد انقضاء حوالى أسبوعين، طاف القرآن بفكرى. لقد جاء متسللاً إلى بنعومة وعلى غير توقع - وأظن كنت فى حينها أشاهد مباراة كرة القدم الأمريكية فى التلفزيون - كما لو كان فكرة ثانية تخطر على البال متسللة إلى داخل الوعى.

ليس حقيقياً أن القرآن يخبرنا القليل عن الله، بل هو يخبرنا بالكثير، لكن لسبب أو لآخر فلم أعر انتباهي إلى ذلك. لو كنت قد ألقيت نظرة على افتتاحية أية سورة، أو التفت ناحية أية صفحة، لكننت قد وجدت ما كنت أبحث عنه لو كنت فقط قد قرأت بعناية؛ لأن هناك مئات الأوصاف في القرآن عن الله وهي تربط أفعال الخير بالترقى إلى القرب من الله، وعلى الرغم من أنني قد قرأت القرآن من الغلاف إلى الغلاف مدققاً في كل آية ومحللاً لكل آية على وجه التقريب طوال وقت القراءة، فقد أسقطت عقلياً إشارات وإحالات النص الوفيرة إلى صفات الله، ترى هذه الصفات التي غالباً ما تجيء للفصل بين الآيات مثل علامات الترقيم وفي شكل نموذجي كبيان وصفى مزدوج وبسيط مثل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٨]، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. ويشير القرآن إلى هذه الأسماء بشكل جمعي بوصفها ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

لقد ظننت أن القرآن يستخدم الأسماء الإلهية بشكل رئيسي بوصفها أدوات لفظية من أجل تنويع الآيات والفصل بين الموضوعات، وعلى الأرجح كان هذا هو السبب الرئيسي وراء أنني قد مررت على هذه الأسماء بسرعة بدون أن أعيرها ما يلزم من الفكر الجاد. وشعرت في الحال أنني ربما قد قللت من أهميتها، وبدأت في كتابة ما استطعت تذكره من الصفات الإلهية بسرعة. (الله هو الرحمن الرحيم

الغفور الرؤوف السلام الودود العدل الكريم الخالق القوى العليم الحى الحكيم  
الحافظ الحق . . إلخ).

كانت الرابطة التى كنت أبحث عنها رابضة أمامى مباشرة هنا، حيث تقاطعت  
هذه القائمة بشكل كبير مع القائمة الأخرى التى صنفتها من قبل لتحوى الفضائل  
التي يحتاج الرجال والنساء إلى تنميتها. كان المعنى الضمنى فى غاية الوضوح:  
حيث إن الله هو جماع واكتمال الفضائل التى يتوجب علينا اكتسابها، فكما ازداد  
رقينا فى هذه الفضائل، كلما تعاظمت مقدرتنا على الإحساس بوجوده - جل  
وعلا. كلما ازددنا رقياً فى الرحمة، كلما تعاظمت مقدرتنا على معرفة الله الرحيم  
بلا نهاية، وكلما ازدادت معرفتنا بكيف نغفر للآخرين، كلما تعاظمت مقدرتنا على  
معرفة الله الغفور بلا حد. . وينسحب الأمر نفسه على الحب والحق والعدل  
والرأفة. . وهكذا. كلما ازداد رقينا فى هذه الفضائل، كلما تعاظمت مقدرتنا على  
التلقى والممارسة لصفات الكمال المتعلقة بالله.

سوف نلتمس العون فى بعض القياس. كان لى فى يوم ما سمكة ذهبية و كلب  
رعى ألمانى رائع، ولدى حالياً من الأطفال بنات ثلاث. فى مقدور سمكتى الذهبية  
لكونها محدودة للغاية فى الذكاء وفى النمو ألا تعرف وتشعر بحبى ورحمتى بها إلا  
على مستوى منخفض نسبياً، أما كلبى الذى هو أكثر تعقيداً وهو حيوان يتمتع بذكاء  
يفوق السمكة، فكان فى مقدوره الشعور بالدفع والتعلق بالآخر على مستوى  
أعلى بكثير، لذلك ففى إمكانه الشعور بالحب والرحمة اللذين أغدقهما عليه بدرجة  
تعلو كثيراً عن السمكة. كذلك فإن بناتى - ويرتفع الأمر كلما ازداد نضجهم -  
يقدرن على الإحساس بمدى حبى لهن وعنايتى بهن على مستوى لن يستطيع الكلب  
استيعابه على الإطلاق؛ وذلك بسبب أن بناتى يملكن الإمكانات المتعلقة بالمعرفة  
الأولية والمباشرة من خلال عواطفهن الخاصة ومن خلال علاقتهن التى تتسم بمشاعر  
أعمق وأغنى من تلك التى لكلبى. يصبح القياس كالتالى: كلما تعاظم ما نحوزه  
من خير، كلما تعاظمت قدرتنا على الشعور وعلى الانتماء إلى الخير المطلق الذى  
هو الله.

ومن أجل أن نزداد غمًا في الاقتراب من الآخرين، فنحن نتقرب إليهم عن طريق ما نتشارك فيه معهم، عندما نرغب في الاقتراب من الآخرين جسديًا، فنحن نضع أجسادنا قريبة من أجسادهم، ومن أجل أن نتقرب من الآخرين فكريًا، فنحن نتقرب إليهم من خلال العقل في محاولتنا للارتباط بهم فكريًا من أجل الوصول إلى تفاهم مشترك. ومن أجل الاقتراب من الآخرين عاطفيًا، فنحن نتقرب إليهم من خلال العواطف باذلين الجهد للحصول على التقاء عاطفي. حيث إن الله هو ينبوع المتعالى لكل الكمال والخير، فنحن نتقرب إليه من خلال الخير الذى طبعه بدواخلنا أو فطرنا عليه. لقد أخبرنا القرآن بأن الله نفخ شيئًا من روحه داخل كل نفس بشرية ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، مما يشير إلى أن كلاً منا يأتى إلى هذا العالم، وبدخله نفحة من الصفات الإلهية، مع ذلك فالأمر موكول لنا، ومتروك لاختيارنا فى أن تفتح نفوسنا متطلعة لإثبات هذه النفحة من خلال تلقى الإشعاع الإلهى اللانهائى والعيش به وفيه.

بدأت أجزاء الصورة تتجمع مع بعضها. الأمر الحقيقى أنه ليس فى مقدورنا أن نتقرب من فهم الله، لكن يمكننا معايشة أسمائه الإلهية - وجوده - بكل ثراء بوصفنا متلقين للخير من خلال الآخرين، كما بوصفنا - بشكل أكثر مباشرة وأكثر حميمية - فاعلين للخير. فى كل لحظة نظهر فيها كرمًا حقيقياً تجاه الآخرين، فنحن نكتسب خبرة من الكرم اللانهائى الذى ينبع ويصدر عن «الكريم». فى كل مرة نتسامح فيها مع عدوان الآخر، فنحن نعيش شيئًا من المغفرة اللانهائية التى تصدر عن الغفور. فى كل مناسبة نصمد فيها من أجل حقوق المظلومين، فنحن نترقى بعض الشيء داخل الحماية اللانهائية التى يوفرها الحافظ. فى كل مرة نتحرى فيها الأمانة والحق فنحن نقتطف شيئًا من الحق الذى ينبع عن الله الحق. نحن نصبح من خلال هذه السبل الأدوات التى يعيىش بها الآخرون، ويحسون بوجود الله. تسرى رحمة الله ورأفته ووده وكرمه وسلامه. . إلخ من خلالنا؛ لتشمل الذين حولنا مما يجعلنا شركاء فى هذا العطاء والإمداد الإلهى؛ لذلك فنحن نملك إمكانية معرفة الله على مستوى أكثر عمقًا مما فى مقدورنا تجاه معرفة أى رجل وأية امرأة؛ لأن وجوده

يصل إلى الآخرين من خلال كينونتنا، كما أننا نحس ونعيش شيئاً من خيره المطلق كما لو كان من ذاتنا أو يخلصنا. يجعلنا ذلك قادرين على الوصول إلى مستوى من الحميمة مع الله لا ترقى إليه ولا تقاربه أية علاقة إنسانية على الإطلاق.

حتى لو لم نكن نعى بخبراتنا عن الإلهي - أو حتى كنا من المنكرين لوجود الله - فنحن نحس بأسماء الله رغم ذلك، لكننا نصر على صمنا ويكمننا وعمانا تجاه منبع هذه الأسماء. ووفقاً للقرآن يمثل ذلك أعظم تراجعياً - الخسران المبين - حيث إننا نحرم أنفسنا من وسائل النمو والترقى قرباً من الله. نحن نقترّب من معرفة شيء من الخير، بينما نغلق نفوسنا دون الرحمة غير ذات الحد التي صدر عنها ذلك الخير، مما يعود بنا مرة أخرى إلى أهمية الإيمان المقرون بالعمل الصالح.

يتوجب أن ندوم على زيادة الإيمان، ليس بأداء أفعال الخير تجاه الآخرين فقط، لكن من خلال التدريب الروحي أيضاً، والذي يتضمن شهادة التوحيد والصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والحج والتأمل والتفكير والتعلم. ينبغى علينا الارتقاء بروحانيتنا من أجل أن نكون على الدوام أكثر إدراكاً لحضور الله الطاغى الذي يتخلل حياتنا، كما ينبغى علينا العمل من أجل أن نكون على الدوام على أهبة التعرف على آيات الله التي تجل على الحصر والتي هي حولنا في الطبيعة، والأكثر أهمية في أنفسنا وفي الآخرين، حيث إن كل فعل من أفعال الكرم، وكل عمل نبيل، وكل إظهار مخلص للفضيلة هو ظهور لله. قد لا نرى الله بأعيننا، لكننا نعرفه بقلوبنا التي هي عرش الفضيلة والروحانية داخل صدورنا.

لذلك تمثل الطقوس الدينية عنصراً مهماً في البرنامج القرآني للرقى البشرى، وأنا أستخدم كلمة «الفرائض» هنا عوضاً عن كلمة «العبادات»؛ بسبب أن الأخيرة ذات مفهوم أشمل داخل القرآن بما يتجاوز الفرائض الدينية. كلمة «العبادة» في اللغة العربية تعنى حرفياً «خدم» أو «خضع بنفسه إلى» وتشمل أى فعل خير أنجز عن إيمان بالله، وفي حين تمثل الفرائض الدينية جزءاً صغيراً نسبياً من العبادة، لكنها تلبى بعض الحاجات الإنسانية الضرورية، ومثلما تساعدنا الفرائض على تنقية قوانا الروحية مثلما أشرنا سابقاً، فإنها تمدنا أيضاً بوسيلة مباشرة لتوصيل حنا إلى الله.

وينص القرآن على أن نعم الله على الإنسان لا تحصى ، وبذلك نصبح إلى حد بعيد على جانب التلقى في علاقتنا مع الله<sup>(١)</sup> . وحيث إن العلاقة السليمة تتطلب أن يكون لطرفيها نصيب من العطاء ، فإننا حين نساعد شركاءنا في الإنسانية فإننا نبين حبنا لله ، لكن ما ينقص ذلك هي الفورية والحميمية التي للتواصل المباشر . تقدم لنا الفرائض الدينية وسيلة مباشرة للعرفان بجميل الله علينا .

يوفر الله لنا من واقع حبه إيانا سبيلاً لنرد إليه ما هو في الحقيقة ملكاً له بالفعل<sup>(٢)</sup> . هذا الأمر يشبه ما فعله بناتى حين يسألننى أن أعطينهن مالاً من أجل أن يشتروا هدية لى . أنا فى غير حاجة للهدية ، وهن يعطيننى فقط ما هو ملكى بالفعل ، لكننى أحب الفكرة القابعة خلف العمل ذلك ، كما أعرف أن ذلك سوف يقربنا أكثر من بعضنا البعض ، يعلن القرآن بوضوح تام أن الله لا يحتاج لشيء من خلقه ، لكنه يحب النية التى وراء أداثنا للفرائض<sup>(٣)</sup> ويعلم أن ذلك يقربنا منه .

ينبغى التشديد على أن الفرائض لا تمثل طريقاً أحادى الاتجاه فى الاتصال ، حيث يمكن لها أن تكون من أشد الوسائط والوسائل قوة فى المعاشة المباشرة والإحساس بصفات الله . يقول المؤمنون بأنهم يعيشون أحياناً حميمية ووصلاً خاصاً بينما هم منخرطون فى هذه الفرائض ، ربما يكون ذلك نتيجة لحقيقة أنهم أثناء الفرائض يركزون بشكل خاص على علاقتهم بالله . لذلك فإن بعض المؤمنين وبخاصة الذين يبدو أنهم قد حازوا مستويات عالية من التقوى والتواضع والسلام الداخلى ، يعيشون هذه الحميمية مزارات أكثر وبقوة أكبر عن الآخرين . مرة أخرى فإنه يبدو أن الترقى فى الخير يرفع ويزيد من قابلية المؤمنين للتلقى والأخذ عن الصفات الإلهية ، على مستوى إمكاناتهم فى امتصاصها داخل شخصياتهم وأيضاً على مستوى قدرتهم على المعاشة والإحساس بهذه الصفات خلال أداثهم لفرائضهم الدينية . لكن لا تمثل معاشة الحميمية الإلهية والشعور بها فى حياتنا هذه بالكاد إلا النزر

(١) [إبراهيم : ٣٤] ، [النحل : ١٨] .

(٢) [النساء : ٧٨-٧٩] .

(٣) على سبيل المثال ذبح الأضاحى خلال موسم الحج بنص القرآن على : ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُمْهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

اليسير بالنسبة إلى معاشتها في الدار الآخرة عندما تزاح وتسقط الأثقة والغرور  
الدينويان .

تعرض السؤال المتعلق بأولوية الإيمان أم العمل إلى كثير من النقاش داخل  
التراث الدينى لعديد من الأديان . من وجهة نظر القرآن يعتبر هذا السؤال من الخطأ  
البديهي ؛ بسبب أنه يشدد على مفاضلة فى موضع لا يتطلب ذلك ، حيث إن الاثنين  
جوهريان ويعضدان بعضهما البعض . ينبغى للإيمان أن يدفع إلى عمل الخير الذى  
يزيد بدوره من إمكانية المرء على تلقى ومعايشة أسماء الله الحسنى مما يتوجب لها  
بدورها أن تزيد من إيمان المرء ، وذلك بدوره ينبغى له أن يرفع من رغبة المرء على  
فعل الخير وهكذا ، فكل واحدة منهما من فاعليات الأخرى ، صاعدين إلى أعلى فى  
حلزون مستمر تجاه مصدر جميع الخيرات . عندما تترقى من خلال الفضائل نجد الله  
بوصفه المنبع اللانهائى ، وعندها تترقى مقدرتنا على معرفته وعلى الارتباط به -جل  
وعلا- برباط الحب .

تبدأ قصة آدم فى القرآن بإعلان الله عن أنه على وشك أن يجعل فى الأرض  
خليفة؛ سوف يمثل الله ويتصرف باسمه ونيابة عنه [البقرة: ٣٠] يقدم الأمر بوصفه  
إنابة ذات خطر عظيم ، وبوصفها تفويضاً تُعلن به الملائكة ، أنها اصطفاء نبيل من  
أجله خلق كل واحد منا . وعندما قرأت هذه الآية فى المرة أولى صعقت بمثل ما  
صعقت به الملائكة ، إذ كيف يتسنى للإنسان هذا المخلوق الشديد التمرد والتخريب  
أن يمثل الله على الأرض؟ مثلما رأت مثل الملائكة جانباً واحداً من جوانب الإنسانية  
وهو الميل ناحية فعل الشر وإلى «من يفسد فيها ويسفك الدماء» ، وبالطبع هناك  
الكثير من الرجال والنساء الذين لا يمثلون الله تمثيلاً حسناً ، لكن قدرتنا على فعل  
الشر والتدننى من خلاله تأتى مترافقة مع قدرة معاكسة لفعل الخير والترقى من  
خلاله ، ويبدو على الإجمال أنه ينبغى أن يكون هناك خير أكثر من الشر فى هذا  
العالم وإلا كانت سلالتنا الإنسانية قد دمرت نفسها من وقت بعيد . دائماً ما كان  
هناك أيضاً أناس يضربون أمثلة عظيمة من الخير ، وقد أوقفوا نفوسهم بكل تواضع  
على تقديم العون للآخرين من أجل حبهم لله ، هذه هى الخلافة التى ينادى بها  
القرآن ويتطلبها منا . إنها تعنى ما يعلو عن مجرد إيصال أو رسالة أو تطبيق لأمر

إلهي، إنها تعنى أن نصبح وكلاء عن الله على الأرض، ومن خلالنا يعايش الآخرون ويشعرون بصفاته -جل وعلا-. يتحول هؤلاء الناس حيث حلوا إلى مصافٍ يمر من خلالها النور الإلهي ويصل خير الله إلى الآخرين من خلالهم .

وكلما ازداد ترقيقهم داخل الخير نتيجة لتفانيهم وتضحيتهم الذاتية وحرصهم على التعلم، تتعاضد قدراتهم على التلقى والمعاشية والتمثيل لأسماء الله الحسنى، ولا تمثل معاشيتهم لحضور الله في هذه الحياة الدنيا إلا مجرد ظل صغير لما ينتظرهم في الحياة الآخرة .

### التراجع

دائمًا ما أثار «محمود قنديل» إعجابي . في مقدوره أن يكون مسليًا إلى أبعد الحدود . كان حسن الطلعة، يجيد النكتة، وساحرًا، وأنيقًا، ومحبًا للاستمتاع . وعلى الرغم من كونه صغير السن ولا يملك ثروة كبيرة- رغم مظهره الذي يشير إلى ذلك- فقد استطاع إلى حد ما أن يصبح جزءًا من مجتمع سان فرانسيسكو . عندما كنا نذهب أنا وهو للتسكع بالمدينة كان الأمر يشبه أن تكون برفقة شخص مشهور- كما لو كنت بصحبة نسخة شابة شرق أوسطية من «دونالد ترامب» تتحلق الناس حوله في كل مكان نذهب إليه، وبينما كان «محمود» محبًا لجذب الانتباه، ومستمتعًا بالفراخية، فلم يكن أى منها يثير رهبته . لم يكن من نوع الأجنبي الذي يفرغ فاه مدهوشًا بأساليب الحياة الخاصة بالأغنياء والمشاهير، بل بدا أن الأمر كله لا يشير انبهاره بالمرّة وأنه في غاية الاعتياد عليه . كان على كامل سجيته عندما يكون برفقة صفوة المجتمع .

كان في مقدور «محمود» أيضًا أن يتبنى الجانب الديني الخالص، وقد يتحدث في بعض الأحيان عن الإسلام، ويدافع عنه بحرارة . وبين الحين والآخر يلجأ إلى عزل نفسه عن محيطه ويتفرغ للصلاة والصيام . وأحيانًا ما يرمي إلى الشعور بالذنب الذي يشعر به نتيجة أسلوب الحياة الذي كان يحياه . كان محسنًا للغاية وفي غاية الحساسية تجاه معاناة الفقراء . قد يفرغ كل ما في حافظة نقوده استجابة لسائل ويبدو نادمًا إلى حد كبير لكونه لم يعطه ما يكفي . كنت أجد مناقشة الدين

مع «محمود» من السهولة بمكان، حيث إنه كان صديقاً رائعاً، ولم يبد أية رغبة في تحويل الآخرين إلى الإسلام، كل ما كنت احتاجه هو الوصول إليه عندما يكون بمفرده بعيداً عن التجمعات .

دعاني «محمود» إلى شقته ذات ليلة على العشاء مع عائلته، عندما وصلت إلى هناك دعتنى شقيقته «راجية» إلى الدخول، حيث كان «محمود» يبدل ملابسه في حجرة النوم، جلست في غرفة الاستقبال منتظراً إياه . كان «محمود» يحب الموسيقى بجميع أنواعها- من الروك أند رول، إلى الكلاسيكية- لكن كان هناك في تلك الليلة نغم وصوت غريب يأتي من مذياع المسجل الخاص به . كان نغمًا بطيئًا وإيقاعيًا وشديد التدقيق وترتيلًا ويبدو أنه باللغة العربية، وبدون موسيقى مصاحبة، مجرد صوت منفرد ومنخفض النغمة يعيد في تكرار وتدقيق كل حرف ساكن وكل كلمة . كان للترتيل قافية ذات قرع وتلازم، وإيقاع قوى ومعقد ومنتظم وذى جرس، ويبدو كما لو كان يخمد اتقاد وحماسة طاغيين . لم أكن قد سمعت شيئاً كهذا في حياتي على الإطلاق .

عندما دخل «محمود» إلى الغرفة اتجه ناحية المسجل وأغلقه، وعندما سألته عن نوع هذه الموسيقى التى كنت أستمع إليها للتو، أخبرنى أن ذلك ليس بموسيقى، لكنه شريط مسجل لواحد من الذين يرتلون القرآن .

سألته: «هل لكل القرآن هذه القافية وهذا الإيقاع القويان؟» . «إنه يشبه فى الأذن وقع الغناء- هل هو من الشعر؟»

أجابنى بنعم على السؤال الأول وبالنفى على السؤال الثانى، وأخبرنى أن للشعر العربى أسلوباً متميزاً فى غاية الخصوصية وأن أسلوب القرآن مختلف تماماً عن الشعر . .

لم أستطرد فى توجيه الأسئلة عن القرآن إلى «محمود» فى تلك الليلة . لقد كنت بالفعل منبهراً بتألق وسطوة القرآن عبر الترجمة، لكن لم يدر بخلدى أن فى مقدوره أيضاً أن يحوز مثل هذا الجمال الترتيلى الفطرى . عندما بلغت من العمر ثمانية وعشرين عاماً ظننت أننى قد شيدت خطوطاً دفاعية من الجدل ضد وجود الله

غير قابلة للاختراق ، لكننى خلال مسيرتى داخل القرآن رأيت هذه الخطوط وهى تتساقط واحداً بعد الآخر وقطعة بعد قطعة . وبحلول وقت انتهائى من قراءة القرآن لم يتبق لى إلا اعتراض رئيسى واحد وهو أن ليس فى مقدورى إدراك الرابطة بين فعل الخير وبين النمو والترقى قرباً من الله . وعندما اكتشفت فى النهاية تلك الرابطة الجوهرية من خلال التفكير فى الأسماء الإلهية ، فإن بساطة هذه الرابطة أثارت دهشتى ؛ بسبب عدم مقدرتى على تجميع أجزائها بمفردى . بذلك قدم القرآن لى العون فى طريق استنارة وتنظيم وتحديد أولويات أفكارى ، وكذلك فى تحليلها . لقد أوفى القرآن بالوعد الذى قطعه ؛ لقد قدم لى الهدى من خلال تساؤلاتى مع شرط توافر النية على مواجهة الإجابات ، لكننى لم أعد على يقين مرة أخرى بما يعنيه ذلك ، حيث إن لى القرآن كما لى أنا نظرتين مختلفتين تجاه ما كنا نناضل فى سبيله . كنت - أنا - أحاول الفوز بمجادلة ، لكنه - القرآن - كان يحاول الفوز بنفس إنسان ، حيث يداوم على التحذير من التبعات الفظيعة المترتبة على إنكار آيات الله .

لقد شعرت بأننى كنت دائماً أمثل الجانب الهجومى فى معظم مواجهاتى مع القرآن وأوضح وجهة نظرى ضد القرآن بصراحة جارحة . وشعرت على الدوام أننى أملك فى النهاية الرد المفحم . أصبحت أشعر الآن أننى على الجانب الدفاعى . ربما كنت معظم الوقت مثل «جورج كاستر» لقد كنت واقعاً فى شرك مواجهة طوفان من النقائص ، لقد واجهتنى حقيقة تخبطى فى لحظة الانكشاف الفريدة التى تذكرت فيها الأسماء الإلهية . عندها فقط شعرت بأننى ، أسبح ضد التيار . وعلى الرغم من أننى كنت فى حالة تراجع وانسحاب فلم أكن على وشك الاستسلام . شعرت بالحاجة إلى تجميع أفكارى ، وإعادة مراجعة موقفى ، وأن أضع بعض الأسئلة موضع الاعتبار .

بدا القرآن لى مالكا لرؤية شاملة تجاه الحياة . وإحدى النقاط الباعثة على الصدمة والتى يقدمها القرآن هى أن الحياة على الأرض ليست بعقوبة على خطيئة أحد أو على فطرته الخاطئة ، لكنها طور من أطوار النمو والترقى فى مسيرتنا الخلقية . لم يسقط الخلق من على عرش النعمة ، لكنهم قد كانوا فى وقت ما من الماضى أكثر بدائية ولم يكونوا قد حازوا النضج العقلى والفكرى للتمييز والاختيار بين الخطأ

والصواب ، لكن القرآن لا يقدم هذه الحالة بوصفها الحالة المثلى . ما يميز الكائنات البشرية عن بقية الكائنات هو ذكاؤهم الذى يجعل منهم ذوى قابلية للتعلم فى غاية التفوق ، وهذه هى الميزة التى جعلت إمكاناتهم تفوق وتعلو على مخلوقات الله الأخرى . ينبأنا القرآن فى مستهل قصة آدم أن البشر سيكونون قادرين على خلافة الله فى الأرض . وقد احتاجوا فى البداية إلى تنمية القدرة على تمييز الخير والشر - لاحتياجهم لأن يصبحوا وكلاء أخلاقيين - ثم لم يصبحوا على استعداد إلى تحمل مسئولية الخلافة إلا بعد ما حاز الرجال والنساء على المقدره على الاختيار بين الاثنين .

إن مهمة العمل بوصفنا ممثلين لله على الأرض هى مهمة شاقة ، تتطلب التواضع والتضحية بالذات والصبر . إنها تعنى النضال من أجل أن نصبح أداة ووسيلة يوصل الله من خلالها خيريه إلى الناس الآخرين . تستلزم الترقى فى الفضائل التى تجدد كمالها ونهايتها فى الله ، وأن نتشارك مع الآخرين فى كل ما نملكه من خير قدر المستطاع . يؤكد القرآن على أن هذه المهمة لن تكون سهلة - إنه يصفها بأنها اقتحام العقبة - لكنه يعد بأن الثواب والجزاء سوف يكون عظيمًا . لن يحصل المتقون فقط على السلام الداخلى وعلى العيش فى خير ، لكن سوف ترتقى أيضاً إمكاناتهم على معايشة وممارسة حب الله الذى بغير حدود ؛ لأنه كلما ازددنا اقترابًا من معايشة ومن ثم معرفة جمال الله تتعاضم مقدرتنا على الانتساب إليه والارتباط به فى حياتنا هذه ، وكذلك فى الآخرة .

يحمل هذا المفهوم عن الهدف من الحياة جاذبية عقلية ، لكن هل يقدم تفسيراً لوجودنا على الأرض ؟ ألم يكن من الممكن أن نخلق من الأخيار ومفطورين على أن نكون من أهل الرحمة والبرأفة والكرم والعدل والحق بدون أن يفرض علينا الحياة خلال الآلام والمشقة المتعلقة بالنضال فى هذا العالم ؟

ليس الزمن هو المعضلة هنا . أنا لا أتساءل عن الفترة الزمنية الخاصة بهذه المرحلة من مراحل خلقنا ؛ بسبب أن القرآن يخبرنا بأن الزمن هو زمن وهمى ، وأن الله يتعالى على البيئة المكانية - الزمانية التى نحيا نحن فيها . مجمل الزمن بالنسبة إلى الله واحد - مجرد لحظة سرمدية مفردة خارجة عن الزمن - لذلك فسواء أكان خلقنا

قد حدث على مدى العديد من القرون أو فى جزء من الثانية فلا يتصل ذلك بالموضوع؛ لأن الأمر بالنسبة إلى الله ليس إلا أمراً مفرداً «كن فيكون»، وعلى الرغم من أننى لا أوجه اعتراضاً إلى الزمن، فإننى أتساءل عن بعض مظاهر الخلق المعينة وبخاصة المعاناة الإنسانية. إحدى الأفكار المثيرة للاهتمام بشدة والتي يقدمها القرآن هى أن الله خلاق (دائم الخلق ويعيده) كما أنه يخلق أطواراً. لا تظهر موضوعات الخلق فى شكلها النهائى على حين فجأة، لكنها تمر من خلال استمرار الأطوار متتابعة ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [يونس: ٤]، [النمل: ٦٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعْتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المؤمنون: ١٩-٢٠].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: ٣٦-٣٨].

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أَقْسَمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ١٤-٢٠].

تتضمن عملية الخلق من جانب الله علاوة على خلق الدوات والإتيان بها إلى عالم الوجود، إسباغ هدايته وتنشئته لهذه الذوات في مدارج الترقى والنمو. لذلك يستمر المخلوق في أطوار متتابعة، إنها كينونة دائمة التغير. إن مجمل العالم الظاهر أثره المدرك بالحواس هو عرضة للتغير والتقلب.

يبين القرآن في إشاراتِهِ العديدة إلى صنائع الطبيعة كيف يهب الله كل شيء حتى بيئته وخلقته التي تلائم إلى حد الكمال وجوده ونموه. تتوافر للشجرة التربة والشمس وماء المطر والهواء والشفرة الجينية وكل شيء آخر تحتاجه لكي تنمو وتنمو. ويمكن قول الشيء نفسه على كل كائن آخر بما فيهم الإنسان. مع ذلك يذكرنا القرآن بأن نمونا الأولى في هذه الحياة ليس هو النمو البدني المادي بل هو النمو الروحي، نحن هنا لكي ننمو ونترقى من خلال الفضائل التي تعكس صفات الكمال التي لله. يترتب على ذلك أنه ينبغي أن يصبح السؤال: هل وهبنا بيئة وخلقنا وتركيباً يتلاءم بدقة مع ترقينا الروحي؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل سيكون التلاؤم قائماً إذا ما أزيلت المعاناة من حولنا؟

إن مفتاح الوصول إلى حقيقة ما يكمن في العثور على الصحيح من الأسئلة، تلك التي تعزل وتحدد القضايا المحورية. عندما نبدأ مسيرتنا الاستقصائية فعادة ما تكون أسئلتنا عامة وتحتوى على العديد من الأسئلة- الفرعية بداخلها، لكن لو كنا ناجحين، فإننا عندها نقدر على تقسيم بحثنا بكل دقة إلى عدد من الأسئلة غير القابلة للاختزال بغض النظر عن كثرتها أو قلتها، ثم نجيب عليها واحداً بعد الآخر. هذا هو ما ساعدنى القرآن على فعله. لم يقدم لى القرآن إجابات واضحة على الدوام، لكنه وفر لى الهدى خلال مسيرة التساؤلات.

عندما وصلت إلى حد السؤال السابق، لم أعد فى حاجة إلى البحث المضنى عن إجابة. إنه من البديهي للغاية بأننا قد توافرت لنا بيئة وخلقة أو تركيب يتلائمان تمام الملائمة مع الترقى والنمو فى الفضيلة. هناك الكثير البالغ الكثرة من الأمثلة التي تخصصنا، من خلال تاريخ الناس الذين ارتقوا إلى مستويات رفيعة من الخير. بل إن هناك العديد من الحالات الدرامية لمجرمين تحولوا بالفعل وقلبوا حياتهم رأساً على عقب؛ ليصبحوا علامات على الفضيلة. فى حياتى أنا الخاصة صادفنى ما

يفوق الحصر من الفرص التي لاحت للاختيار بين الصواب وبين الخطأ ومنها تعلمت التأثيرات التدميرية للشر، كذلك المنافع الإيجابية للخير. لقد توصلت من خلال الملاحظة والخبرة إلى معرفة أن كُلاً من السلوك الخاطيء، وكذلك السليم، يمكن لهما أن يتحولا إلى عادة تتخلل نسيج شخصية المرء.

كما أصبح من الواضح لى أيضاً الآن أن المعاناة هي ضرورة جوهرية من أجل ترقينا في الفضيلة. ويسرى الأمر نفسه على الفكر والاختيار الإنسانيين. يكرر القرآن التأكيد على أن لكل من المعاناة والذكاء والاختيار أدواراً جذرية تلعبها في تطورنا الروحي. لكى تتعلم الرحمة وتنمو فيها - على سبيل المثال - فمن غير المنطقي أن تصل إلى ذلك بدون التعرض إلى المعاناة. يتطلب الأمر كذلك الاختيار، وهو المقدرة على الوصول إلى الشخص صاحب الحاجة أو إهماله وتجنبه. الذكاء ضرورى من أجل أن يتمكن المرء من تقدير حجم ما سوف يستثمره من ذاته إظهاراً للرحمة للمحتاجين. وبالمثل لكى نكون صادقين فإن الأمر يستلزم اختيار ألا نكذب، ثم يعلى من قيمة هذا الاختيار أن الأمانة قد تقودنا إلى الخسارة الشخصية وإلى الألم، وذلك مما يمكن للمرء أن يتنبأ به من خلال استخدامه لعقله. إن قسم وعهد الزواج المشهور اللذين يطلبان من الزوجين أن يظلا مخلصين لبعضهما البعض فى المرض والصحة، وفى الفقر والغنى حتى الموت والفراق، يعلنان بكل وضوح قواعد الاختيار والمعاناة والعقل داخل الحب. ذلك أن هذا القسم يتطلب من الزوجين أن يختاروا أن يظلا إلى جوار بعضهما بغض النظر عن المعاناة التى سوف يلقىانها، كما يعلمان تمام العلم ما يتضمنه ويستوجبه هذا الأمر. أن تتسامح فهو اختيار بإعطاء العذر لمن ارتكب فعلاً خاطئاً فى حقنا حتى وإن كنا نفهم الشر الكامن فيما فعلوه، ويمكن قول الشيء نفسه على جميع الفضائل. إن الذكاء وإرادة الاختيار والمعاناة هما فى غاية الحيوية من أجل معايشة الفضائل والترقى فيها.

وعلى الرغم من أن الفضائل هي من الأمور المجردة التى تستعصى على التحليل، فمن المستحيل على وجه التقريب تصور هذه الفضائل وهي مبرمجة،

وأنها قد تكون موجودة على مستويات مرتفعة داخل مخلوق وهو لا يملك القدرة على الاختيار، ولا الذكاء، ولا بعض المعرفة بالمعاناة والألم.

الفضيلة هي أكثر من كونها فعلاً، فهي تتضمن النية، والفهم والحس المرتبط بهما. يمكن برمجة جهاز الكمبيوتر ليصبح دائم الصواب، لكن لا يمكننا وصفه بأنه صادق أو حكيم. يقدم المنظار المساعدة للمريض لكننا لا نعتبره رحيماً. يصور القرآن الملائكة بوصفهم مخلوقات لا تملك إرادة حرة، لكن الرجال والنساء يملكون القدرة على الارتفاع إلى مستوى يفوق الملائكة.

الذي يضيف القيمة على الفعل هو إرادة فعله مع القبول والاعتراف بالحاجة التي يلبها. إذا ألقيت أنا بقشرة ثمرة موز في الطريق، وبعدها بساعات كان هناك لص في طريقه إلى سرقة شخص عجوز، ثم ترحلق هذا اللص في قشرة الموز هذه مما منعه من ارتكاب جريمته، فلا يمثل فعلى بإلقاء قشرة الموز في الطريق فعلاً من أفعال العدل أو الرحمة من جانبي. إن دورى فى منع هذه الجريمة هو دور غير مقصود على الإطلاق، إنه فعل تنقصه الإرادة وينقصه الفهم والإدراك. إذا أرسلت عبر البريد مبلغاً من المال إلى رجل معروف بالثراء الشديد دون أن أذكر اسمى أو عنوانى، فمن الصعوبة بمكان اعتبار ذلك فعلاً من أفعال الإحسان؛ ذلك لأنه فعل موجه تجاه شخص ليس فى حاجة إلى العون المالى. لا يعنى ذلك القول بأن الإرادة والذكاء ومعرفة العواقب هى فقط عناصر ومكونات الفعل القيمى - إن الأمر أكثر تعقيداً وعمقاً من ذلك - لكن يتوجب تقديم هذه العناصر الثلاثة إلى درجة متقدمة بعض الشيء، حتى يكون فى مقدورنا إدراك الفضيلة.

كان مدرب كرة القدم الأمريكية فى مدرستى الثانوية يعلق لافتة فى غرفة الملابس مكتوب عليها «لاعائد بدون ألم» ما يعنى أنه من أجل ارتفاع المستوى البدنى الرياضى ينبغى علينا أن نكون على استعداد لتحمل المعاناة والألم. واعتاد أساتذتى على القول بأن التعلم يستلزم العمل والجهد الشاقين وكذلك الصبر. وقد قال لى أحد أساتذة الرياضة ذات يوم إن المسائل الرياضية العويصة والصعبة هى تلك التى نتعلم منها الكثير. لم يخطر فى بالى على الإطلاق أن أتشكك فى هذه

البديهيات، حيث بدت لى منطقية وطبيعية. يشير القرآن إلى أن القانون الطبيعي نفسه ينطبق على ترقينا الروحي. البشر هم مخلوقات ذات ذكاء فائق ينمو من خلال التعلم، لكن التعليم يتطلب أيضاً الوضع فى موقف الاختبار. وهى نقطة يعيد القرآن تكرارها. يتضمن الترقى والنمو الروحي والأخلاقي التحكم والسيطرة على الإرادة الذاتية، وإعمال التطور الحادث فى عقل المرء واستخدامه، إضافة إلى معاشة واكتساب خبرة المحنة والابتلاء.

تستلزم ممارسة الاختيار الأخلاقي أيضاً معرفة وإدراك الخطأ والصواب فى البدائل المطروحة أمامنا، والتي تقدم تفسيراً لتعرضنا إلى الإلهام الملائكى أو الوسوسة الشيطانية. يعرض الإلهام وتعرض الوسوسة لنا معاً من أجل إبراز وإعلاء الأخلاقية فى العديد من قراراتنا، ويوفر الاثنان لنا (الإلهام والوسوسة) المحرضات والعوامل المساعدة على ترقينا الروحي. يلعب الوحي دوراً مكملًا، حيث إنه يقدم أوصاف سلوك الخير والشر، ويلقى الضوء على السبيل إلى النمو والترقى الروحي.

لقد بدأت فى رؤية كيف أن جميع العناصر التي قدمها القرآن فى قصة آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩] كانت على توافق مع ما كان عليه قوله فى ما يخص الهدف من الحياة. بدأت حججى فى الجدل ضد وجود الله فى النفاذ بشكل متسارع. لم يكن ذلك فى ذاته مبرهنًا على أى شىء. لكننى قد اعتدت على الظن بأن لدى أسباباً وجيهة لعدم الإيمان.

### الممارسة.. الممارسة.. الممارسة

لقد تربيت فى بيئة إجرامية إلى حد ما. كل طفل عرفته على التقريب كان منغمساً فى شىء من الخروج عن القانون. لم أنخرط فى إدمان المخدرات، أو فى إدمان شرب الكحوليات بسبب أننى رأيت الإدمان يدمر والدى، وإخوتى الأربعة، وعمائى الاثنىن، والكثير من أصدقائى. لم أشترك فى عنف جنسى على الإطلاق، ولا حتى اغتصاب لا يعاقب عليه القانون على الرغم من أن الفرص كانت سانحة،

وتجنبت قدر المستطاع الدخول فى المعارك بين العصابات وأنواع العنف المنتشر فى الجوار، حيث إننى لم أكن أخطط للعيش لبقية عمرى فى بلدتنا «بريدج پورت- كونيكتيكت» أو فى إصلاحية الولاية. وقد عشت حياة مستقيمة على وجه الإجمال، لكننى لم أكن محصناً ضد الخطيئة.

ارتكبت أول سرقة لى عندما كنت فى الحادية عشرة من عمرى. سرقت كيسين زنة كل واحد منهما ثمانية أرطال من العلكة يبلغ ثمن الكيس الواحد منها خمسين سنتاً، من سوپر ماركت يقع فى طريقى إلى المنزل عائداً من مدرسة سانت أندروز، كنت فى غاية القلق لدرجة استلزمتنى خمس عشرة دقيقة لإنهاء عملية السرقة هذه. فكرت فى حمل الكيسين والتوجه ناحية المخرج، ثم فكرت بأنه ربما كان أحد يراقبنى فأعدتهم مرة ثانية فى قسم الحلويات. بعد تكرار ذلك لمرتين قررت إخفاء الكيسين على الأرض لما يقرب من باب الدخول الأوتوماتيكي إلى داخل المحل قليلاً. خططت أن أغادر السوبر ماركت خاوى اليدين، ثم أعود إلى المحل واضعاً إحدى قدمى على ممسحة أرض المدخل الأوتوماتيكي المطاطية؛ لكى يفتح الباب الأوتوماتيكي، ثم أسحب الكيسين المخبأين وأنسل عائداً من باب الدخول قبل أن ينغلق من ورائى. شعرت أن ذلك أكثر أماناً عن محاولة الخروج من باب المخرج والأكياس مخبأة تحت قميصى؛ ذلك لأننى تصورت أن مفتشى المحل يراقبون على الأرجح أبواب المخارج وليس التى للخروج. علاوة على ذلك فلو أننى لم أجد الكيسين عند عودتى، حيث تركتهم فذلك يعنى أننى كنت تحت المراقبة.

سارت خطتى - التى تبدو لى سخيفة عندما أنظر الآن إلى الوراء - بدون أية هفوات، ثم تقابلت مع أصدقائى فى ساحة انتظار السيارات فى الخارج. كان قلبى يدق بسرعة دقاً عنيفاً وأنا أصف مغامرتى لهم. شعرت بالارتياح البالغ؛ لأنه لم يقبض على بوصفى بطلاً عظيماً، وكما لو كنت قد أحرزت هدف الفوز فى لعبة كرة القدم. لكن زهوى أصابه التبخر فى اللحظة التى وطأت فيها قدمائى المنزل، غمرتنى نظرة واحدة رمقتنى بها أمى بشعور من الذنب. كانت نموذجاً للأمانة فحسب، وكانت تملؤها الثقة البالغة تجاهى. كنت أعلم ما سيحدث لها من أذى عميق لو أنها علمت بما قد فعلته للتو.

وجدت صعوبة فى النوم فى تلك الليلة . وشعرت بعدم ارتياح شديد ، لم أستطع التوقف عن التفكير فى ما اقترفته . كما لم أستطع التوقف عن التفكير فى الله . شعرت كما لو كان الله قد أحاط بى ، واحتوانى ، وأخذ ينظر إلىّ ، بدون غضب لكنها نظرة مراقبة بغير اختلاف ، وشعرت بندم وخجل هائلين . تمنيت أن يكون فى مقدورى التخلص من ذلك اليوم وإبعاده فى مجمله بعيداً عنى . فكرت فى شراء كيسين إضافيين من نفس السوبر ماركت ثم إعادة وضعهما على الرف ، لكننى لم أفعل ذلك إطلاقاً .

داومت على السرقات الصغيرة فى العشرة أعوام التالية . وأعتقد أننى لم أسرق شيئاً تزيد قيمته عن عشرة دولارات ، ولم يتجاوز عدد سرقاتى المرات الست فى العام ، ومع الوقت تزايدت مهارتى فى فعل ذلك ولم يحدث على الإطلاق أن قبض علىّ . عندما بلغت الحادية والعشرين من العمر دعوت صديقة لى للعشاء فى الخارج لتناول البيتزا فى مطعم إيطالى قريب من حرم الجامعة . وعندما فرغنا من طعامنا ، وضعت شيك الحساب خلصة فى جيب بنظلوئى . واتجهت ناحية مكتب دفع النقود . طلبت من محصل النقود أن يعطينى كيساً من العلكة . ودفعت ثمنه دولاراً واحداً ، وأعطانى محصل النقود بعض قطع النقود المعدنية كفرق للحساب ثم خرجت ومعى صديقتى الشابة من المطعم بدون دفع ثمن عشاءنا .

أثار هدوئى فى حرمان المطعم من ثمن البيتزا التى أكلناها إعجاب صديقتى الشابة . وكان أكثر ما أثار إعجابها هو التهور والطيش الذى أظهرته بذهابى إلى محصل النقود من أجل كيس من العلكة بدلاً من مغادرة المطعم على عجل ، وشرحت لها أن السقاة والساقيات فى المدن الجامعية يراقبون بشدة الطلبة المتهرين ، لكن عندما يرونك تتبادلين النقود مع محصل النقود فإنهم يفترضون أنك تدفعين شيك الحساب . سألتنى عما إذا كان الذنب قد سبب لى انزعاجاً فى يوم من الأيام ، فأخبرتها أنه ذلك كان يحدث فى الماضى وليس الآن ؛ لأنه مع الممارسة يزداد الأمر سهولة .

حدث ذلك فى وقت قريب من وقت المرة الأخيرة التى سرقت فيها شيئاً ، ورغم ذلك فكلما نظرت إلى الورا لا أعرف ما الذى جعلنى أتوقف . قد يعود السبب فى

ذلك إلى أن وضعى المالى قد تحسن قليلاً. أو قد يرجع الأمر فى ذلك إلى كونى قد ابتعدت عن «بريدج بورت» لما يزيد عن أعوام أربعة .

أو ربما وصلت إلى الإحساس بأن الأمر لم يعد يوازى قيمة المخاطرة باحتمال القبض علىّ. كل ما أعلمه أنه بدأ يسبب لى الضيق مرة أخرى .

إذا كان الهدف من الحياة هو النمو والترقى فى الفضائل التى ينتهى مصدرها وتجد كمالها فى الله ، بحيث قد يتاح لنا معاشة وتذوق صفاته والتمتع بالحميمية الإلهية [الوصل الإلهى] إلى درجات لا نهاية لتعاضدها ، وإذا كانت أفعال الخير تحفز من هذا الترقى وتنميه ، وأفعال الشر تعوقه وتخبطه ، إذن فإن الذى يحصل على الفوائد أو يتحمل الخسائر من فعل الخير أو الشر هو فاعل أيهما . لذلك ينص القرآن على :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل : ٩٢] .

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦] .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

[الزمر : ٤١] (١)

إن الضرر الذى يحس به فاعل الشر بوصفه نتيجة للإصرار على المعاصى هو ضرر جوهرى . تعوق أفعال الشر الرقى فى الفضيلة وتؤدى إلى التآكل الروحانى ؛ لذلك فإن المصرين على مجافاة الخير يتوجهون بالعدوان ضد كينونتهم ، كما يعانون من الذبول الروحى . وبدلاً من الحصول على ما يحتاجون إليه من أجل معرفة الصفاء والسلام فى الحياة التالية ، فإنهم يكتسبون النقيض التام ، إنهم ينمون من الصفات التى تتناقض مع معاشة ومعرفة الجمال الذى كان ينتظرهم فى المقابل فى الحياة الآخرة . يتخلل الشر الذى تعودوه داخل كيانهم - يصبح الشر هو ذاتهم - وهذا هو الخسران المبين ، حيث إن الذات وحدها هى التى تنتقل إلى الوجود التالى .

(١) قارن [يونس : ١٠٨] ، [الإسراء : ١٥] .

يصور القرآن هذه الرابطة بين أعمال المرء وبين وضعه فى الآخرة تصويراً رمزياً قهرياً: سوف تكون أعمال الشخص الشريفة مربوطة إلى عنقه أو عنقها ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]، ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٣]، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ [يس: ٨]، سوف تشهد ألسنتنا وأيدينا وأقدامنا وجلودنا على ما قدمنا فى حياتنا ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، ﴿ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠] سوف نأكل من ثمار أعمالنا ﴿ وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْتُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَأُنْكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتِنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَلِكَ خَيْرٌ نَّزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا يَتَّوْنُ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشْرِبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿ [الصفات: ٣٩-٦٨]. إن الأعمى روحياً فى حياتنا هذه سوف يحشر أعمى فى الحياة القادمة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]: أما الذين عاشوا بنور الله فى هذه الحياة فسوف يملكون نورهم يسعى بين أيديهم فى يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [الحديد: ١٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [التحریم: ٨] . سوف يتضح تأثير كل فعل أخلاقي ، كبير هذا الفعل أم صغر ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٧ - ٨] . تنجلي عن هذه الأوصاف أننا عندما ندخل إلى الآخرة فإن ذواتنا سوف تشخص الحالة الروحية التي ارتفعنا إليها مع نهاية حياتنا الأرضية ، كذلك وبما يتطابق مع الحالة البدنية لطفل حديث الولادة في لحظة وصوله إلى هذا العالم والتي تفصح عن غموه البدني داخل الرحم ، تكون ذات الشخص عندما يدخل إلى الآخرة مفصحة عن الخير أو الشر الذي حصله واكتسبه في حياتنا هذه . دخول الشخص الشرير بالفعل إلى العالم الآخر يشابه ولادة مخلوق يدخل عالمنا هذا وهو مشوه ومحروم مما يحتاجه للراحة الجسدية . لذلك فمن غير المثير للدهشة أن تتساوى الخطيئة مع تدمير الذات .

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧] ، [الأعراف: ١٦٠] .

﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق: ١] .

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧] .

﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠] .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] .

لا يصير القرآن على وجوب الوصول إلى الكمال من أجل الحصول على السعادة في الآخرة . إنه يقدم حياتنا على الأرض بوصفها طوراً من أطوار ترقينا ، وأن المؤكد في هذا الطور أننا سوف نرتكب أخطاء ، ويجب أن نأمل ونرجو أن نتعلم من

أخطائنا هذه . إن الميزان هو الرمز الأخرى البارز الذى يربط رقينا الأخلاقى والروحانى مع وضعنا فى الحياة الآخرة ، وهم الذى يزن الخير الذى كسبه المرء . فى يوم القيامة سيكون الفرح والهناء من نصيب الذين ثقلت موازينهم - وهم أهل الخير بشكل رئيسى - أما الذين خفت موازينهم - وهم أهل الشر خاصة - فسوف يعانون عذاباً عظيماً جزاء تدميرهم لذواتهم (١) .

يلعب حق المحاولة والخطأ دوراً هاماً فى رقينا ونمونا ، حيث نتعلم وننمو من خلال اختياراتنا على المستويين العقلى والروحى . عندما نصنع خطأ ترتب عليه تبعات أخلاقية نكون قد ارتكبنا خطيئة يتزايد ثقلها وأذاها إذا كنا على علم بمدى عدم صوابها ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ [النساء : ١٧ - ١٨] . لذلك فإننا إذا أدركنا أخطاءنا ، ثم تبنا وفعلنا الصواب بعدها فإن الدروس التى تعلمناها يمكن لها أن تكون عظيمة الفائدة ، وبهذا الأسلوب فإن الخطأ الذى اقترفناه ذات مرة يمكن له أن يتحول إلى صالحنا ويساهم فى رقينا داخل الفضائل .

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

يختلف أمر ألا نقترف أية أخطاء بسبب تحذيرنا بعدم فعل ذلك ، اختلافًا تاماً عن أن يعود ذلك إلى أننا قد عايشنا وذقنا بصفة شخصية ضرر الخطأ . فى الحالة الثانية فإن الحكمة الكامنة خلف الحظر تصبح مطبوعة على صفحة القلب وصفحة العقل ، ثم نتعد عن الشر ابتعاداً كبيراً لا بسبب أنه محظور ولكن بسبب النكوص الذاتى الغريزى المتعلق باحتمال عودة الاضطراب الداخلى السابق معرفته .

كذلك فبمثل ما إن حق المحاولة والخطأ هو جوهرى للغاية لتطورنا الفكرى ، فإنه جوهرىٌ للغاية لتطورنا الروحى . بدون احتمال حدوث الخطأ ، سوف يتجمد

(١) [الأعراف : ٨-٩] ، [القارة : ٦-١٠] .

ويركذ إدراكنا الروحي ، كذلك محاولة إصلاحه ؛ لذلك فإن أهمية التوبة التي يداوم القرآن علينا لإتيانها لا تحتاج إلى مزيد تأكيد . تجمع التوبة ما بين حدوث الذنب وبين الرغبة فى التغيير ، لكن التحول الذاتى قد يكون من الصعوبة بمكان . يبين القرآن أن الله لا يترك العبد التائب فى الصراع بمفرده ، لكنه يقترب منه أو منها بالمغفرة . يتضمن هذا الأمر ما يفوق الغفران ، حيث يستجيب الله لتوبتنا ويسارع إلى تقديم العون لنا بإحاطتنا بحبه ورحمته ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

إنه يهدى التائب إلى التعافى والشفاء الروحي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] ويكرر القرآن النص على أن الله «توب على» الخاطئ الذى انسحق فؤاده بالندم بالرحمة والمغفرة والكرم ، مذكراً إيانا بما يلتفت به أحد الوالدين ناحية طفله أو طفلها المصاب . وحيثما يذكر الاسم الإلهي «التواب» داخل القرآن فدائماً ما يرتبط ذلك بمغفرة الله التى تزيد من قوة الانطباع بأنه مغفرة الله هى استجابة رحمته لهؤلاء الذين أخطأوا فى حق أنفسهم وينشدون العافية<sup>(١)</sup> .

جميع المعاصى التى نرتكبها ليست ذات ثقل متساو ، يتسبب لنا عن بعضها من الأذى الذى يفوق ما للمعاصى الأخرى . علاوة على ذلك ، فى مقدور أفعال الخير أن تزيح التأثيرات الضارة لتلك الشريرة ، كما يرجح الثواب الإيجابى الناشئ عن الخير التبعات السلبية لعمل الشر رجحاناً .

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١]

﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦-٣٧] .

(١) [البقرة : ٣٧ - ٥٤ - ١٦٠] ، [النساء : ١٦ - ٦٤] ، [التوبة : ١٠٤ - ١١٨] ، [النور : ١٠] ، [الحجرات : ١٢] ، [النصر : ٣] .

﴿ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤].

تعيد هذه الآيات التأكيد على أن البراءة من كل عيب ليست مطلوبة من أجل دخول الجنة في الآخرة، وعلى أن كل ابن آدم خطاء؛ لذلك تنص الآية ﴿ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢] على وجوب ألا يدعى أى امرئ أنه حاز الطهارة والتزكية . بدلاً من ذلك يأمرنا القرآن أن نناضل لكل اجتهاد من أجل الترقى فى الخير؛ لأن رحمة الله وعنايته هى التى سوف تركبنا فى النهاية، مع ذلك فهناك الذين لا يفلحون فى عتق أنفسهم من الكبائر التى اقترفوها، وهم يحبون الله على الرغم من ذلك ويشير الندم عذابهم . هؤلاء يخبرهم القرآن أنه على الرغم من هذه الكبائر فقد لا يقودهم ذلك على الدوام إلى العذاب فى الآخرة:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

لكن هناك معصية وحيدة هى التى تقود إلى الهلاك لا محالة، وهى الرفض الإرادى الاختيارى لترك عبادة الآلهة الزائفة؛ ذلك لأننا حين يقودنا عصياننا إلى وضع ثرواتنا، ونفوذنا، وشهواتنا، وكبرياتنا، والناس، وإنجازاتنا وإبداعاتنا، فوق الله، فإننا نصبح فى تناقض كامل ومباشر مع الهدف من وجودنا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

إحدى أكثر المخاطر التي يقوم بها صاحب المعصية الذي لا يتوب هي أنه يجلب التدمير إلى مركزه أو مركزها الأخلاقي والروحي، أو هو ما يشير إليه القرآن بوصفه «القلب»، ينص القرآن على أن ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾، إنما ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] (١).

يؤكد القرآن على أن قلوب هؤلاء الأشخاص تصبح سوداء ومحجوبة وصدئة وقاسية، وبالتالي لا تقدر الهداية على اختراقها، في حين تصبح قلوب الأتقياء لينة وحساسة ومنفتحة على التلقى لنور هداية الله -جل وعلا- (٢) كلما زاد إصرارنا على فعل الشر كلما أصبحنا أقل حساسية تجاه الشر النابع منه. وعلى الرغم من أن القرآن ينسب في الأغلب ذلك الحجاب الذي تتسبب عنه قساوة وتمرد القلب إلى الله، فلا ينبغي لنا التوصل إلى الخلاصة التي مفادها أن ليس للعاصي يد في ذلك. ذلك أن القرآن عادة ما ينسب إلى الله كل ما يحدث وفقاً للقوانين الطبيعية المتعلقة بالسبب والنتيجة والتي قد وضع الله خلقه تحت تأثيرها. وبذلك يصبح الله هو فائق الحب والنوى، وهو فائق الإصباح، ومجرى السحاب، وينزل المطر، وينصب الجبال على الأرض، ويمسك الطير في الهواء، ويعلم بالقلم، وينشئ الجنين داخل الرحم (٣)، بينما هذه الظواهر تتبع في الوقت نفسه قوانين ثابتة يشير إليها القرآن بـ«الأقدار» (٤) المحكومة إلهياً. يمكن قول الشيء نفسه على حجاب قلوب غير المؤمنين حيث يبين القرآن بثبات أن ذلك يحدث بسبب إنكارهم العنيد للحق. إنه هو الشر الذي يكتسبه البشر والذي يغطي قلوبهم مثل الصدأ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. إنه بسبب أن الجاحدين يتبعون

(١) انظر أيضاً [النساء: ١١٦].

(٢) [البقرة: ٧٤]، [المطففين: ١٤].

(٣) [الحجر: ٢٢]، [النحل: ١٠-١٥]، [المؤمنون: ٦٣].

(٤) [الرعد: ٨]، [الحجر: ٢١]، [الفرقان: ٢]، [يس: ٣٩]، [القمر: ٤٩]، [عبس: ١٩]، [الأعلى: ٣].

شهواتهم؛ لذلك فقد طبع على قلوبهم ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زِينٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ  
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤) مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم  
يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة  
من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم (١٥) ومنهم من يستمع إليك حتى  
إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتباعوا  
أهواءهم ﴿[محمد: ١٤-١٦]. لا يجبر الله الناس على إنكار آياته، لكن قلوبهم  
فحسب هي التي تقسو نتيجة للشر المتأصل فيهم ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله  
مخرج ما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٧٢]. ومثلما اعتادت والدتي على القول: «إذا  
واصلت الكذب لوقت طويل، فحتى أنت نفسك سوف تبدأ في تصديقها». ذلك  
هو أحد وجهي العملة الذي رأيناه، أنه كلما ازداد ترقيناً داخل الخير، كلما  
تعاضمت مقدرتنا على التلقى عن الصفات الإلهية وعن الحق على وجه الخصوص.

### لا يمكن إنكار ذلك

كرهت طوال حياتي عدم اتخاذ القرارات. لا يعينني هذا الأمر كثيراً فيما يتعلق  
بالآخرين، لكنني لا أطيق ذلك من جانبي. مع ذلك فلاسابع عدة بدت لو كانت  
سنين عدة لم أفعل شيئاً بخصوص خبرتي ومعايشتي للقرآن. لا يعود الأمر في  
ذلك إلى أنني لم أفكر في ذلك أثناء مواجهتي مع القرآن- على العكس، كان ذلك  
في عقلي على الدوام- لكن لم أملك القدرة على الاختيار، لم تتح لي بدائل  
عملية. ماذا على أن أفعل وإلى أين أتوجه الآن؟ لقد سلمت بأن القرآن وهبني  
الهداية - على الرغم من كونى ملحداً- التي شكلت بالنسبة لي على الأقل فكراً  
عقائدياً متسقاً على المستوى المنطقي، كما كنت على استعداد للاعتراف بأن الوحي  
قد أحدث تأثيره في نفسى بأساليب لم أكن أتوقعها على الإطلاق وبدا أنها قد  
أيقظت روحانيتي من سباتها وأمسكت بتلابيبها، وهي الروحانية التي أنكرت أنا  
حيازتي لها- كان من الصحيح أيضاً أنه لم يكن مفهوماً لدى أن نصاً يملك مثل هذه  
القوة، والجمال، والعبقرية، يمكن له أن يسطع من قلب أراض جرداء وبدائية

ومتخلفة من داخل العالم القديم . لكن لم يبرهن أى من ذلك لى على أن هناك إلهًا على وجه التحقيق ، وأنه هو الذى أوحى بهذا القرآن .

لم يكن هناك وجود لأحد أو لأى شىء فى مقدوره السير بى إلى الخطوة التالية . لقد أخذتني نهاية القرآن بشكل فجائى كان من الممكن أن يساعدنى إذا كان قد قدم لى وصفًا عن كيفية التحرك بصفتى منفتحًا على القبول باحتمال وجود الله إلى مرحلة الاقتناع الراسخ بذلك . لكننى بدلاً من ذلك قد تركت مع مجادلات عرجاء ضد وجود الله بلا حصول على براهين لصالح وجوده . وبدلاً من الانتهاء بانجذاب عقلى ، تركنى القرآن بعظات ثلاث نهائية :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤) ﴾ [الإخلاص : ١-٤] .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ (٥) ﴾ [الفلق : ١-٥] .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١) مَلِكِ النَّاسِ ۝ (٢) إِلَهِ النَّاسِ ۝ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝ (٦) ﴾ [الناس : ١-٦] .

تساءلت : هل الأمر بهذا اليسر؟ هل هو مجرد القول بها؟ هل هو مجرد التسليم بالموافقة؟ مجرد الاستغائة؟ وماذا بعد ذلك؟ هل سيفتح الله قلبى ثم أرى؟ هل يقول القرآن بأن خوفى من الآخرين هو الذى يمنعنى من الوصول إلى الخطوة التالية؟ هل هو يقول بأن أفعال القوى النفسية الشريرة هى التى تعيقنى عن الاقتناع؟

وحتى إذا كان الله موجودًا ، فما الذى علىّ فعله؟ كنت أقف وحيدًا داخل ذلك كله . لم أكن على معرفة بأى شخص قد مر بمثل هذه التجربة التى أخوضها . والمسلمون القلائل الذين اتصلت بهم كانت مقاربتهم للقرآن من إطار عقلى مختلف . وبدا لى أن أسلوب قراءتهم للقرآن ولفهمه وللتصرف وفقاً له محكوم كليًا بشكل مسبق بثقافتهم ، كما لو أن الاستجابة لكل آية قد صيغت وحصل التوافق عليها من قبل من زمن طويل ، ثم درست وحفظت عن ظهر غيب من

وقتها. بدا منهم عدم الارتياح تجاه الاستجابات غير المتعارف عليها وغير المؤهلة وذات التلقائية تجاه قرآنهم. وبدا أنهم يقبلون فقط بالقراءات ذات المرجعيات القديمة على الرغم من الحقيقة الساطعة بأن القرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] (١).

وبالطبع لا وجود لأحد - قد أتى من نفس المرجعية التي أتيت أنا منها - يقدر على استيعاب ما كنت أمر به. لم يكن لدى معرفة وصلة بأمرىكى واحدا قد قرأ القرآن. لم يمثل الأمر جزءاً من حركة يواجهها مجتمعي، مثلما كان حال النبي في الجزيرة العربية. لم يتوافر لى الاختيار بين جهات متصارعة. لقد وقع هذا الأمر أمامى بمحض المصادفة، مثل العثور على زجاجة بداخلها خطاب ألقته المياه على شاطئ منعزل. لا يمكن أن أكون أنا المقصود بذلك. ماذا إذا أصبحت أنا مقتنعا بوجود الله. فهل من المفروض على بعدها أن أصبح مسلماً وأن أتشبه بثقافة ورؤية للعالم غريبتين عنى؟

لقد أفلت الأمر برمته من يدي. لقد سبحت بعيداً جداً عن الشاطئ، وبغض النظر عن مدى ما أبذل من جهد جهيد. كان التيار يسحبني مبتعداً عن الشاطئ. الأمر كله حدث برقة لا ترى. لقد بدأت دراستي للقرآن بوصفها بحثاً عقلياً بسيطاً تحول بالتدرج ليأخذ منحى روحياً. اكتشفت خلال قراءتي للقرآن أن جدالى الفلسفى الموجه ضد وجود الله - والذي كنت أعتبره غير قابل للنقض - كان أضعف كثيراً مما كنت أعتقد. وجدت أنه كان يتأسس على مجموعة من القواعد التي لم يقبل بها القرآن. ومن ناحية أخرى منحنى القرآن تفسيراً للوجود الإنسانى - يتأسس على افتراضات لم أضعها على الإطلاق فى اعتبارى، ورغم ذلك بدت لى طبيعية - كما وجدتها من الترابط فى غاية القوة. مع تبخر واختفاء اعتراضاتى على وجود الله، بدأت تخامرنى الشكوك - بشكل معتدل فى البداية - حول مبدأ الإلحاد. ويغلب على الاعتقاد أننى بدأت عند هذه اللحظة فى معايشة وتلقى لحظات

(١) وبالمثل تنص الآية [١٠٩] من سورة الكهف على: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

روحانية كانت مبهمة فى البدايات الأولى ثم ازدادت شدتها فيما بعد عندما أصبحت أكثر انفتاحاً على احتمالية وجود الله . لقد شعرت أن التغيير قد ابتداء بوصفه تغييراً عقلياً- تغييراً فى التفكير- ومنه بدأت فى اكتساب يقظة روحانية .

هل وجود الله حقيقة ممكنة؟ يشير القرآن إلى أننا نمتلك معرفة فطرية مطبوعة بالله- تكاد تكون إحساس غريزي بذاته جل وعلا - وقد تصبح هذه المعرفة الفطرية غائمة ومعتمة من خلال قصر عقولنا فى اتجاه وحيد هو الله وراء الأغراض الدنيوية ، أو من خلال المداومة على المعاصى أو العناد . ويرفع القرآن دعوى بأن العديد من غير المؤمنين يظهرون هذه المعرفة الأولية بوجود الله فى لحظات الخطر ، عندما يشعرون بأن الموت قريب ، وأنهم يتوجهون ناحية الله بتلقائية شديدة وبكل إخلاص بالأزمات أو بالخطر ، أو كما لو كان الدعاء يمثل ميلاً غريزياً بالنسبة لهم . رغم ذلك يشير القرآن أيضاً إلى أنه بعدما تمر الكربة وتبتعد بعيداً فإن هذا الصنف من الناس ينقلب على عقبيه بشكل نموذجى عائداً إلى إنكار الله . وينص القرآن على أن الهدف من هذه الحوادث هو إظهار «الآيات» وعلى أن الله يتعرض بها لغير المؤمنين من خلقه ﴿لعلهم يتذكرون﴾<sup>(١)</sup> .

تذكرت يوماً كنت أسير فيه مبتعداً عن منزلى بعدة أميال ، وكنت وقتها خريجاً حديثاً فى مدينة «بوردي» ، عندما هبت فجأة عاصفة رعدية . لم يكن هناك أى ملجأ أحتمى به انتظاراً لانتهاى العاصفة . وأصبحت الرياح والأمطار والبرق فى غاية العنف إلى الحد الذى ملأنى بالذعر والفرع ، وبدأت فى العدو قافلاً فى الطريق . وتعود إلى ذاكرتى أننى وصلت إلى حد أننى تضرعت إلى الله : «إذا كنت بالفعل موجوداً وحاضراً فلا تدعنى للموت هنا» . هدأت العاصفة بعدما يقرب من خمس عشرة دقيقة ، وعدت إلى سيرى قاطعاً بقية الطريق . نسيت بعدها كل شىء عن حافزى الدينى هذا ، لقد طردته بعيداً عنى بوصفه ذعراً غير منطقى ، وكررت الفعلة نفسها فى مناسبة أخرى واحدة على الأقل . كنت فى غاية الالتزام بالحادى إلى الدرجة التى لم أسمح بها على الإطلاق لنفسى بالتفكر ملياً بشكل جدى فيما الذى

(١) [العنكبوت: ٦٥] ، [الروم: ٣٣] ، [لقمان: ٣٢] .

جعلنى أدير وجهى تجاه الله بشكل طبيعى وتلقائى للغاية، حتى على الرغم من يقينى بعدم وجوده - جل وعلا .

استعصت اللحظات الروحية التى كانت تتابنى أثناء قراءة القرآن على التفسير، ولم يسبق لى على الإطلاق معرفة شىء مثل هذا، ولم أشعر على الإطلاق بهذا الحضور الملموس لما لا أقدر على وصفه إلا بكونه رحمة طاغية فحسب . إننى لم أكن أنشد أو أريد أو أستجدى هذه اللحظات . وعلى النقيض، فقد قاومت لبعض الوقت هذه اللحظات ودفعتها بعيداً عنى . ما أثار صدمتى إلى حد كبير هو أننى لم أتوقع أو أرغب فى حدوثها، لكنها حدثت وحسب .

وربما كان الفراغ الذى أشعر به هو أكثر ما تسبب فى ضيقى . ما هذا الشىء الذى أثار بداخلى مشاعر العزلة الملازمة هذه، على الرغم من ثراء حياتى الاجتماعية؟ .

سألت نفسى : ماذا أريد أكثر من ذلك؟ ماذا أريد أكثر من ذلك من الآيات الدالة أو المجادلات أو آيات القرآن التى دخلت قلبى وأنارت بصيرتى؟ كم عدد المرات الإضافية التى احتاجها من أجل النظر فى مرآة ذاتى قبل أن أعرف نفسى؟ ألسنت أنا هو السائر المتعطش والتائه والضال داخل صحراء اللهات، والصراع الدنيوى سعياً وراء سراب من بعده سراب؟<sup>(١)</sup> .

لماذا أستمر على إنكارى لذلك؟ لماذا لا أستطيع قبول الذى حدث لى أثناء قراءتى للقرآن؟ لماذا لا أستطيع القبول بأننى كنت أفقد معايشة القرآن، وأفقد الصوت الذى يتحدث إلى شخصياً، وأننى أشتاق بشدة إلى الهيبة والإثارة والنضال والراحة والألم والكرب، وأننى أحن إلى الحوار الدائر الذى قام بداخلى؟ لماذا لا أستطيع إعلان اعترافى بأننى افتقدت الحميمية والحب اللذين شعرت بهما بعض الأحيان ثم رفضتهما على رغم ذلك؟ ما الفكرة وراء المزيد من الإنكار؟ لماذا لا أقدر على الاعتراف بأن كل ما كنت أتألم بشأنه، وكل ما كنت أفقدته وكل ما كان يلاحقنى لم يكن إلا الله؟

(١) انظر [النور : ٣٩ - ٤٠] .

وفكرت هل هناك سبب يمنع حدوث ذلك لى؟ ذلك لا يحدث لأحد كان رافضاً  
للتدين، منكرًا للروحانية، هازئًا من الإيمان.

إذن لماذا التبرم؟ لماذا لا أترك الأمور فى مسارها التى هى فيه؟

وفى الثامن من نوفمبر عام ١٩٨٢م فى حوالى الثالثة من بعد الظهر، ذهبت إلى  
المسجد الذى يقع فى الدور تحت الأرضى من كنيسة القديس اجناسيوس فى جامعة  
سان فرانسيسكو، وقلت لنفسى إننى ذاهب لمجرد إلقاء بعض الأسئلة؛ لأن التحول  
إلى الإسلام ما زال مستحيلًا. بعدها بما يقارب النصف ساعة، كنت مغادراً  
للمسجد بعد أن أصبحت مسلماً<sup>(١)</sup>.

---

(١) تكلمت عما حدث فى المسجد فى ذلك اليوم فى كتابى «النضال من أجل الاستسلام» دار نشر أمانة  
بالتسفىل، MD، ١٩٩٤م، ص ٩-١٧.